روايات الجيب

اللؤلؤة السوداء

بطلها اللص الظريف أرسين لوبين

اللؤلؤة السوداء

بطلها اللص الظريف أرسين لوبين

للكاتب الفرنسى الكبير

موريس لبلان

تعريب الأستاذ

شمس الدين الغرياني

مطابع دار الجيب بالقاهرة

القسم الأول

فرار أرسين لوبين

فرغ لوبين من تناول طعام الغداء ، فأخرج من جيبه سيجاراً فاخراً وراح في اعجاب شديد البطاقة المذهبة التي تحيط به وما عليها من كلمات . .

وفي تلك اللحظة تماماً فتح باب الحجرة . . فلم يكن لدى لوبين سوى ثانياً ليلقي بالسيجار في درج المائدة أمامه ، ثم يتحرك بعيداً . .

ودخل الحارس ليخبره أن موعد نزهته اليومية في فناء السجن قد حان . . لوبين وقد استخفه المرح والجذل :

— لقد كنت أنتظرك في صبر نافد ياصديق . . !

ثم خلف (الزنزانة) مع حارسه ، فما كادا ينعطفان عند نهاية الممر حتى د رجلان وأخذا يفتشانها تفتيشاً دقيقاً . .

ولم يكن هذان الرجلان سوى المفتش ديوزى وزميله المفتش فولنفانت . .

كانت إدارة الأمن العام تريد أن تصل إلى نتيجة حاسمة . . فما من شك أن لوبين كان على صلة وثيقة مع العالم الخارجي ومع أعوانه جميعاً . .

بل لقـــد حدث بالأمس أن نشرت (الجراند جورنال) رسالة منه إلى مح القضائي ، هذا نصها :

« سيدى

« لقد تجرأت في المقال المنشور منذ أيام قلائل على التعرض لشخصي في عبا كريمة .. ولسوف أحضر بنفسي لأناقشك الحساب فيما كتبت عني ، قبل موعد مح يوم أو يومين ...

أرسين لوبين »

فلما فحصت الرسالة تبين أنها بخط أرسين لوبين نفسه . . ومعنى ذلك أنه كان بالرسائل إلى الخارج .. ومعناه أيضاً أنه كان يتلقى الرسائل من الخارج بدوره

وهذا وذاك لا يعنيان إلا شيئاً واحداً .. لاشك فيه ولاريب ...

فمن المحقق أنه بعد خطة فراره الذى طالما أعلن عنه وأكده من قبل ..
وهكذا تحرج الموقف وأصبح لا يحتمل اغضاء أو ارجاء . .
وذهب مسيو ديدوى بنفسه ، وهو مدير إدارة المباحث الجنائية كما يعلم القراء ، إلى
بن لاسانتيه فقابل محافظ السجن ليبلغه التدابير التى رئى اتخاذها لمنع محاولة السجين
ح للفرار .. وكان يصحب معه اثنين من أقدر مفتشى البوليس ، فأرسلهما إلى حجرة
ين لتفتيشها ثم مضى لمقابلة المحافظ فى مكتبه . .
لم يدع الرجلان شيئاً فى الحجرة دون فحص أو تنقيب . . فقد رفعا بلاط الأرضية
دة بعد الأخرى ، ومزقا حشايا الفراش وبحثا بداخلها . . وبالاجمال فعلا كل
يمكن عمله فى مثل هذه الظروف .. ولكنهما انتهيا إلى عدم العثور على شىء البتة..
وكانا على وشك مغادرة الحجرة ، عندما جاء الحارس مهرعا وهو يقول :
— الدرج ! .. عليكما بدرج المائدة . . فقد لمحته وهو يغلقه فى عجلة عندما
منذ قليل ..
فنظرا بداخل الدرج ، وما لبث ديوزى أن صاح متعجبا :
— يا إلهى ! . . لقد وقع اللعين هذه المرة .. !
ولكن فولنفانت أمسك بيده قائلا :
— لا تمس شيئا يابنى .. دع الرئيس يفحص كل شىء بنفسه ..
— ومع ذلك .. هذا السيجار الفاخر .. !
— دعه مكانه ، وهيا بنا نخبر الرئيس ..
بعد دقيقتين ، كان مسيو ديدوى يفحص كل ما يحويه درج المائدة .. فوجد أولا
من قصاصات الصحف الخاصة بلوبين ، ثم غليونا وكيسا من المطاط لحفظ الطباق
وبعض طوابع البريد الأجنبية ، وأخيراً وجد كتابين كبيرين ..!
وكان أحدهما كتاب « الأبطال والبطولة » تأليف كارليل، وهو باللغة الانجليزية ،
أما الثانى فكان كتابا أنيق التجليد باللغة الألمانية ، طبع فى ليدن عام ١٦٣٤ ..
وراح مسيو ديدوى يقلب صفحات الكتابين ويفحص أوراقهما مليا ، ويدقق فى
ءة الملاحظات المدونة على هوامشهما وهو لايدرى أهى شفرة سرية خاصة بلوبين

وأعوانه ، أم أنها لاتعدو تعليقات بريئة على مايسترعى أنظار القارى، فيهما ؟.. فلما ف
فحصه ، وازدادت حيرته ، غمغم يقول :

— سوف ننظر فى أمرها فيما بعد . .

وناولها لأحد مساعديه ، ثم انثنى يفحص كيس الطباق والغليون ..وأخيراً أمسك
بالسيجار الفاخر بين أصابعه وما لبث أن هتف :

— ياإلهى !.. إن صديقنا ينعم برفاهية لامثيل لها هنا .. ويدخن سيجار « هنرى
كلاى » العظيم ...

وفى دربة المدخن العريق ، قرب السيجار من أذنه وراح يهزه ..

وعندئذ ندت من شفتيه صيحة عجب واستغراب !..

فقد لان السيجار وانبعج بين أصابعه ، وانبعث من داخله حفيف خافت ضئيل ..
ولما أخذ يفحصه فى دقة بالغة لمح بين أوراق الطباق شيئا أبيض اللون ، أخرجه فى
حذر بواسطة دبوس صغير فاذا به لفافة رفيعة من الورق لايزيد سمكها عن سمك عود
الخلال .. وإذا بها رسالة سطرت كلماتها بحروف دقيقة وبخط نسائى وقد جاء بها :

« لقد حلت ماريا محل الأخرى .. وتم إعداد ثمانية من عشرة . . اضغط بقدمك
إلى الخارج فيتحرك قسم من الحاجز المعدنى إلى الأعلى . . وسوف تنتظرس . من ١٢ إلى
١٦ كل يوم .. ولكن أين ؟.. أجب على الفور .. ولا تخش شيئا .. فان صديقتك
تسهر على راحتك وتعنى بأمرك »

وفكر مسيو ديدوى لحظة ثم قال :

— هذا واضح كل الوضوح .. ماريا هى عربة السجن .. والثمانية هى المقاصير
الصغيرة التى بداخل العربة حيث يوضع كل سجين بمفرده .. ومن ١٢ إلى ١٦ أى من
الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الرابعة .

فصاح ديوزى :

— ومن هى س .. التى سوف تنتظره ؟

— السيارة ياغبى !..

ثم نهض قائلا : هل أتم السجين طعامه ؟

فأجابه محافظ السجن :

— نعم ...

— مادام لم يقرأ هـــذه الرسالة بعد ، كما تدل حالة السيجار ، فمعنى ذلك أنه قد تلقاها للتو . . .

— ولـكن كيف ؟ . .

— وما أدرانى ؟.. لعلها كانت فى طعامه ، داخـــل الخبز أو فى جوف قطعة من البطاطس ! . .

— هذا محال .. فقد سمحنا له بتلقى طعامه من الخارج حتى يمكننا أن ننصب له شركا ولـكننا لم نجد شيئا قط . .

— حسنا .. لننتظرده هذا المساء .. ويحسن أن يظل بعيدا عن حجرته ريثما أحمل هذه الأشياء إلى مسيو بوفيه قاضى التحقيق . . فاذا وافق فسوف نلتقط صورة هذه الرسالة فى الحال ، ولن تمضى ساعة حتى تـكون هذه الأشياء قد أعيدت إلى موضعها بالدرج مع سيجار مماثل نضع بداخله الرسالة الأصلية . . وبذا لن يرتاب السجين فى شىء البتة ...

وإذ حل المساء كان مسيو ديدوى يهرع إلى السجن ، وبصحبته المفتش ديوزى ، وقد استبد به فضول عجيب ...

ومضى إلى مكتب المحافظ ، فوجد على المدفأة صفحة فوقها ثلاثة أطباق . . فهتف يسأل المحافظ :

— هل تناول عشاءه ؟

— نعم ...

— ديوزى .. اقطع هذه (المكارونا) إلى شرائح رفيعة ، وافتح هذه القطعة من الخبز وابحث بداخلها .. هل تجد شيئا ؟

— كلا ياسيدى .. لاشىء البتة

فراح مسيو ديدوى يفحص الصحاف والملعقة والشوكة ، ثم السكين.. وكانت سكينا عادية مما يصرح باستخدامه فى الســـجون ، ذات نصل مستدير .. فأدار مسيو ديدوى

مقبضها الى اليســـار ثم الى اليمين فاذا به يدور فى يده ، وإذا بنصل السكين أجوف وبداخله فراغ به شريحة من الورق ..

فقال مسيو ديدوى : آه ..! هذه ليست آية فنية ، كما ينتظر من رجل كأرسين لوبين ! ولـكن لا نضع الوقت سدى، فاذهب الى المطعم ياديوزى وقم بالتحريات اللازمة ثم قرأ :

« إننى أدع الأمر لك .. ولتبعنى س .. كل يوم على مبعدة .. وسوف أكون إلى الأمام .. وسأراك قريباً يا صديقى المحبوبة »

فصاح مسيو ديدوى وهو يفرك كفيه جذلا :

— أخيراً ..! ها هى الأمور تتحسن فى النهاية ..! وسـوف ينجح الفرار بمعونة قليلة من جانبنا .. بالقدر الـكافى لتمكيننا من القبض على شركائه .

فسأله المحافظ :

— هب أن أرسين لوبين استطاع رغم ذلك أن يتسرب من بين أصابعك ؟

— سوف نستخدم أكبر عدد من الرجال لاحباط محاولته .. أما إذا بدا من براعته أكثر مما نتوقع واستطاع الافلات ، فلدينا باقى عصابته ، وسـوف نرغمهم على الـكلام ما دام زعيمهم يخلد الى الصمت .

***

والواقع أن أرسين لوبين كان قليل الـكلام .. وقد ظل مسيو بوفيه قاضى التحقيق شهوراً عديدة يحاول استخلاص شىء منه على غير جدوى .. حتى غدا الاستجواب أشبه بمحادثات تافهة بين مسيو بوفيه وبين الأستاذ دانفال ، أحد الأعلام البارزة فى المحاماة، الذى كان لا يعرف عن موكله أكثر من رجل الشارع العادى .

ولـكن أرسين لوبين كان بين الحين والحين ، وبدافع الأدب الجم ، يريح القاضى المسكين بمثل هذه العبارة :

— تماما يا سيدى ، إنى أوافق على هذا .. فسرقة الـكريدى ليونيـــه ، وسرقة شارع بابيلون ، وترويج أوراق النقد الزائفة ، وحادث بوالص التأمين ، والسطو على قصور دارمستيل ، وجوريه ، وأمبلفان ، وجروسييه ، ومالا كيس .. كل هـذا من عمل يدى .

— لعلك إذن تفسر لنا ..

— لا حاجة لذلك يا سيدى .. إننى أعترف بكل شىء يسند إلى .. كل شىء فى قائمة الاتهام ، وعشرة أمثاله فوقه ..

وإذ أدرك التعب مسيو بوفيه ، أرجأ هذه الاستجوابات المضنية وكف عن متابعتها ، ولكنه ما لبث أن استعادها من جديد بعد أن اطلع على هاتين الرسالتين ..

ومنذ ذلك الحين كان لوبين ينقل من سجن لاسانتيه الى مركز البوليس كل يوم فى الساعة الثانية عشرة ، داخل عربة السجن مع غيره من المسجونين.. وكانوا يعودون ثانية فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ..

وذات يوم ، بدأت رحلة العودة فى ظروف غير عادية .. فان بقية المسجونين الذين أحضروا من سجن لاسانتيه لم يكن قد تم استجوابهم بعد ، ولذلك رئى إعادة لوبين الى السجن أولا ..

وهكذا استقل العربة بمفرده . . وهــذا النوع من عربات السجون ينقسم طولا بدهليز طويل تقع على جانبيه عشر مقاصير صغيرة ، خمس من كل جانب .. وكانت هذه المقاصير من الضيق والانخفاض بحيث يضطر السجين الى الجلوس فيها دون أن يستطيع الحركة .. أما الحارس فيجلس فى مؤخرة الدهليز ليرقب الأبواب العشرة المؤدية اليه ..

وضع أرسين لوبين فى المقصورة الثالثة اليمنى . . وما لبثت العربة الثقيــلة أن تحركت للسير . . وتركوا ميدان الساعة ، ثم مروا أمام دار المحكمة العليـا ، حتى إذا ما بلغت العربة منتصف جسر سان ميشيل ضغط لوبين بقدمه اليمنى على أسفل الجدار الحديدى للمقصورة ، فاذا بشىء ينفلت من مكانه ، وعلى أثر ذلك فتح أحــد الألواح قليلا إلى الخارج .. فرأى لوبين أنه يقع بين العجلتين تماما ..

وانتظر لوبين مترقبا ، وقد استيقظت حواسه جميعا .. وكانت العربة قد خلفت الجسر ومضت فى شارع سان ميشيل وهى تسير ببطء شديد .. فلما وصلت إلى منعطف سان جرمان ، وقفت فجأة ، إذ سقطت أمامها عربة صغيرة يجرها جواد هزيل .. وما هى إلا لحظة حتى توقفت حركة المرور جميعا واكتظ الطريق بالعربات والسيارات والحافلات :

ومد لوبين رأسه فى حذر ، فرأى عربة أخرى من عربات السجن تقف ملاصـقة

العربة التي كان بها .. وعندئذ دفع الحاجز الحديدى قليلا ، ومد ساقه وارتكز بقد
على محور العجلة ثم وثب إلى الأرض . .

ورآه حوذى إحدى عربات النقل ، فانفجر مقهقها .. ولكنه عندما ثاب إلى رشد
وحاول أن يصيح مستنجدا كانت الجلبة قد اشتدت إذ بدأت حركة المرور من جديد
وفضلا عن ذلك كان لوبين قد ابتعد عن المكان ..

وانطلق يعدو حتى بلغ الافريز الأيسر للطريق فوقف برهة وهو يجيل نظرا
حواليه ، لاهث الأنفاس ، شأن رجل لا يدرى أية وجهة يتخذها . . وكأنما استقر رأ
أخيرا ، إذ دس يديه فى جيوبه ، ثم استطرد يسير فى تراخ كأنه شخص يسير متنزها عل
غير هدى أو غاية ..

وكان الجو دافئا والشمس مشرقة فى هذا اليوم من أيام الخريف .. كما كانت المقاهى
زاخرة بروادها ، فاتخذ لوبين مجلسه إلى منضدة خارج أحدها . .

وطلب كأسا من الشراب وعلبة من اللفائف .. ثم راح يرشف الشراب فى بط
وتمهل ، ويدخن لفافته فى هدوء واطمئنان ، حتى إذا انتهت أشعل غيرها وهو يستمتع
بأنفاسها فى لذة ونهم ..

وأخيراً نهض وأمر الساقى بأن يدعو مدير المحل . . فحضر الرجل على عجل
وعندئذ قال له لوبين فى صوت مرتفع سمعه كل من كان حولهما :

— إننى شديد الاسف ، فقد خرجت دون أن أحمل كيس نقودى . . ولعلك إذ
عرفت اسمى لا ترى بأسا فى إمهالى يوما أو يومين .. إننى أرسين لوبين ! . .

فتطلع اليه الرجل ذاهلا وقد حسبه يمزح ، ولكن لوبين استطرد قائلا :

— نعم .. أرسين لوبين .. نزيل سابق بسجن لاسانتيه .. ولكنى فررت منه للتو
وإنى أرجو أن يكون اسمى كافيا لبعث الثقة إلى نفسك ..

ثم استدار ومضى فى خطوات وئيدة ، وسط عاصفة من ضحكات الجالسين ، قبل
أن ينبس مدير المقهى بكلمة واحدة على سبيل الاحتجاج . .

وانعطف فى شارع سوفلو ، ومنه إلى شارع سان جاك . . فظل يمشى فى هـذا
الأخير بهدوء وسكينة ، وهو يدخن لفافة فى إثر الأخرى ، ويتفرج على واجهات المحلات
التى يمر أمامها ..

فلما اجتاز بولفار بورت رويال مضى قدما نحو شارع لاسانتيه !..

ولاحت له جدران السجن العالية القاتمة ، فمضى نحوها حتى بلغ الحارس الذى يقف أمام البوابة الضخمة .. وعندئذ رفع قبعته وقال :

— هل هذا سجن لاسانتيه يا صديقى ؟

— نعم .. ماذا تريد ؟

— إننى أريد العودة إلى زنزانتى ، إذا سمحت .. فقد سقطت من عربة السجن فى الطريق ، ولا أحب أن أستغل هذا الظرف ..

فزجر الحارس صائحا :

— اذهب فى طريقك يا رجل ، ودعك من هذا الهذر !..

— أرجو المعذرة .. ولكن طريقى هو من خلال هـــذه البوابة . . وإذا كنت ستدع أرسين لوبين خارج السجن فسوف يكلفك ذلك غاليا يا صاحبي ! . .

فأجفل الحارس ، وقال :

— أرسين لوبين ؟.. ماذا تعنى بحق الشيطان ؟..

فتظاهر لوبين بتحسس جيوبه ، ثم غمغم :

— يؤسفنى أنه لا توجد معى الآن بطاقة زيارة باسمى !..

فظل الحارس يرمقه من فرعه إلى قدمه فى نظرات لا تخلو من الدهشة والجزع . ودون أن ينطق بكلمة ، مضى إلى الباب فقرع جرسا ، وكأنما يفعل ذلك مرغما .. وفتح باب السجن على الأثر ، فاجتازه لوبين فى خطى ثابتة .

وبعد بضع دقائق ، كان محافظ الســجن يهرع نحو حجرة المكتب ساخطا لاعنا ، وهو يتظاهر بالغضب الشديد ... فابتسم لوبين وقال :

— دعك من هذه المهزلة يا سـيدى ولا تحاول استخدام هذه الأساليب معى . . ماذا ؟ . لقد عنيت بأن تعيدنى إلى السجن فى العربة بمفردى ، كما أعددت هذا الحادث الطريف لتعطيــل حركة المرور ، وحسبت أننى سأخلد إلى الفرار وألحق بأصـدقائى وأعوانى ! . ولـكن ماذا يـكون من شأن العشرين مخبراً سريا الذين كانوا يسيرون حولى على الأقدام وفوق الدراجات وفى العربات ؟. لقد كانوا يتأهبون للايقاع بى ولعلى

ما كنت أفلت من أيديهم على قيد الحياة !. ومن يدرى فربما كان هذا مايسعون وراءه؟

وهز كتفيه فى ازدراء ، ثم أضاف :

— أرجو ياسيدى ألا تدعهم يشغلون أنفسهم بأمرى ! . فعند ما يستقر عزمى نهائيا على الفرار ، فلن أكون فى حاجة إلى معونة أحد !



وما مضى يومان حتى نشرت صحيفة (صوت فرنسا) التى غدت بلا ريب الصحيفة الرسمية لوقائع أرسين لوبين ، والتى يقال إنه يملك الشطر الأكبر من أسهمها ، تفصيلا دقيقا مطولا لمحاولته الفرار المزعومة ، وصورة طبق الأصل للخطابين المتبادلين بين لوبين وصديقته المجهولة ، والوسائل التى استخدمت فى نقل هذه الرسائل ، والدور الذى لعبه البوليس ، وحادث العربة فى منعطف سان جرمان ، وما جرى عقبهى شارع سوفلو ..

لم تترك الصحيفة كبيرة أوصغيرة إلا ذكرتها .. وأصبح من المعروف أن التحريات التى قام بها المفتش ديوزى بين خدم المطعم لم تؤد إلى أية نتيجة مثمرة . . وزيادة على ذلك علم الجمهور بتلك الحقيقة المريبة التى تدل على ما لهذا الرجل من موارد مختلفة متعددة تحت تصرفه ، وهى أن عربة السجن التى نقل فيها كانت « زائفة » كلها ، وقد استبدلها أعوانه باحدى العربات الست الحقيقية التى تقوم بنقل المسجونين .

وما من أحد خامرته ذرة من الشك بعد ذلك فى أن أرسين لوبين سوف يفر من السجن حتما . . وهو نفسه قد أكد ذلك فى عبارات صريحة لا لبس فيها ولا ابهام ، فى اجابته على أسئلة مسيو بوفيه قاضى التحقيق فى اليوم التالى لحادث الفرار المزعوم ، إذ نظر اليه وقال فى سكينة :

— أصغ إلى يا سيدى ، وثق فيما سأقوله لك . . إن هذه المحاولة ليست إلا جزءاً من الخطة الكبرى التى أعددتها للفرار ..

فعبس المحقق ، وقال :

— ولكنى لا أفهم .

— لا حاجة بك لأن تفهم ما أقول ياسيدى .

وفى ذلك الاستجواب الذى تم بين مسيو بوفيه وأرسين لوبين على انفراد ،

والذى ظهرت تفاصيله على صفحات (صوت فرنسا) فى اليوم التالى ، راح المحقق يلخص استجوابه ، فقال لوبين فى ملل وسأم :

— يا إلهى !. ما جدوى ذلك كله ؟. إن هذه الأسئلة جميعاً لا طائل تحتها .

— ماذا تعنى بأنه لا طائل تحتها ؟ .

— طبعا . . ما دمت لن أحضر محاكمتى .

— لن تحضر ؟.

— كلا .. وهذه نية ثابتة لدى ، وعزم لاينقض .. ولن يحول شىء دون تحقيقه .

وكان لهذا التأكيد ، مضافا إلى القرائن الأخرى التى تقع يوما بعد يوم ، أكبر الأثر فى إثارة حنق رجال القانون وغيظهم . . كانت أدق الأسرار وأعمقها تذاع على الملأ ، أسرار لا يعرفها سوى أرسين لوبين ولا يمكن أن يذيعها إلا هو . . . فماذا كان الهدف الذى يرمى اليـــه من وراء ذلك ؟. بل بأى الوسائل كانت هذه الاشياء تذاع على العالم الخارجى ؟ .

واستبدلت بزنزانة لوبين غيرها فى الطابق الأسفل . . كما أن قاضى التحقيق من جانبه كف عن متابعة استجوابه وأحال القضية إلى المحكمة ..

وتلا ذلك شهران سادهما الصمت والهدوء . . شهران قضاهما لوبين ممدداً فى فراشه ووجهه إلى الجدار باستمرار.. وكان يبدو أن استبدال زنزانته قد حطم روحه المعنوية فرفض أن يقابل محاميه ، وقلما كان يتبادل مع حراسه كلمة واحدة . .

وبدأ ينتعش فى الأسبوعين السابقين لموعد المحاكمة .. فشكا من حاجته إلى الهواء ومن ثم كان يؤخذ فى الصباح الباكر إلى الفناء للرياضة ، وفى صحبة حارسين عن يمينه ويساره .

وفى ذلك الوقت لم يكن فضول الجماهير قد نقص أو تضاءل .. فكان الناس يرقبون أنباء فراره يوما بعد يوم ، فى لهفة ورجاء .. نعم كانوا يرجون ذلك ويتمنونه . . . فقد استحوذ لوبين على ألبابهم ، واستثار اعجابهم بخفة روحه ومرحه وبراعته وابتكاراته وغموض حياته .. وكان المعتقد بينهم أن أرسين لوبين سوف يهرب حتما .. لا مناص من ذلك ولا ريب .. بل لقد بدأت الدهشة تستبد بهم لتأخيره فى الفرار كل هذه المدة

وكان مدير الأمن يسأل سكرتيره كل صباح :

— حسنا .. ألم يفر بعد ؟ ..

— كلا يا سيدى ..

— إذن فسوف يفر غداً !..

ومع ذلك ، فى اليوم السابق للمحاكمة ذهب رجل أنيق الملبس إلى إدارة صحيفة (جراند جورنال) وسأل فى لهجة مهذبة عن المحرر القضائى ، حتى إذا ما قابله أسرع بوضع بطاقة صغيرة أمامه ثم انفلت خارجا ..

وكانت البطاقة تحوى هذه الكلمات :

« إن أرسين لوبين يفى بوعده دائما » ..

وفى هذه الظروف والملابسات بدأت محاكمة أرسين لوبين ..

وكانت قاعة الجلسة مكتظة بالحاضرين حتى غدت أشبه بخلية النحل .. كان كل شخص يريد أن يرى أرسين لوبين العظيم ، ويستمتع بمشاهـــده الطريقة التى سوف يتبعها حتما فى استغفال رئيس المحكمة وخديعته .. ومن ذلك ازدحمت قاعة الجلسة بالمحامين والقضـاة ومخبرى الصحف ورجال الفن وصفوة رجال المجتمع وسيداته .. وبالاجمال كانت القاعة معرضا لكل من تزدهر بهم أرقى الحفلات الباريسية وأبهجها ..

وكان الجو مطيراً والضوء خافتا ضئيلا بسبب الغيوم والضباب .. فكان من العسير رؤية أرسين لوبين جيداً عندما دفعه الحارس إلى قفص الاتهام .. ومـع ذلك فان ثقل حركته وبلادته ، والطريقة التى تهاوى بها فوق مقعده ، وجموده بعد ذلك دون حركة كأنما لا يعنيه شىء مما يدور حوله ، كل ذلك أثار شيئا من خيبة الأمل لدى المتفرجين. بل إن محاميه ، وهو أحد مساعدى الأستاذ دنفال المشهود لهم بالبراعة وسعة الحيلة ، راح يحاول التحدث إليه أكثر من مرة فكان يحرك رأسه ولا يحير جوابا ..

وقرأ كاتب الجلسة صحيفة الاتهام .. فلما انتهى بدأ الرئيس يسأله :

— قف أيها المتهم .. ما اسمك وعمرك وصناعتك ؟..

ولكن المتهم لم ينبس بحرف .. فأعاد الرئيس سؤاله :

— اسمك .. ما هو اسمك ..؟

وفى صوت غليظ خائر سمع الحضور هذه الكلمات :

— ديزيريه بودرو ! ..

فسرت غمغمة الدهشة فى القاعة ، بينما كان الرئيس يقول :

— ديزيريه بودرو ؟..هل تقمصت شخصية أخرى ؟.. أما وهذا هو الاسم الثامن الذى تنتحله ، وهو اسم خيالى كالأسماء الأخرى بلا ريب ، فاننا نفضل — إذا لم يكن لديك مانع — اسم أرسين لوبين ، ذلك الاسم الذى عرفت به واشتهرت به بين الناس ..

وألقى الرئيس نظرة على الأوراق التى أمامه ، ثم تابع القول :

— لأنه على الرغم من جميع التحريات التى أجريت ، كان من المستحيل أن نعرف شخصيتك الحقيقية .. فانك تمثل ظاهرة لا تتفق مع مجتمعنا الحديث ، وهى أنك رجل بلا ماض .. فنحن لانعلم من أنت ، ولا من أين أتيت ، ولا أين نشأت طفلا ثم يافعا .. وبالاختصار فاننا لا نعرف عنك شيئا . . فقد انبعثت بيننا فجأة ، منذ ثلاث سنوات ، دون أن يدرى أحد كيف ظهرت ، واتخذت لنفسك اسم أرسين لوبين ، فأصبح هذا الاسم عنوانا على مزيج من الذكاء والتمرد ، من الاجرام والكرم . . أما ما نعرفه عنك قبل هذا التاريخ فمجموعة من الفروض والتخمينات . . فمن المحتمل أن يكون (روستلت) مساعد المشعوذ المشهور ديكسون ، الذى ظهر منذ ثمانية أعوام ، هو نفسه أرسين لوبين .. ومن المحتمل أن الطالب الروسى الذى اعتاد أن يشتغل بمعمل الدكتور ألتير فى مستشفى سان لويس منذ ستة أعوام . والذى أدهش أستاذه بمقدرته الفائقة فى استنباط النظريات الخاصة بالبكتريولوجيا ، ثم بشجاعته الخارقة بتجاربه فى الأمراض الجلدية .. أقول إن من المحتمل أن يكون هو أيضا أرسين لوبين !.. كذلك كان مدرس المصارعة اليابانية الذى ظهر فى باريس قبل أن يسمع أحد باسم الجيوجتسو .. وكذلك أيضا بطل سباق الدراجات الذى ربح الجائزة الكبرى فى المعرض ، وتسلم عشرة الآلاف فرنك ثم لم يسمع أحد عنه شيئا بعد ذلك .. ولعله كان أرسين لوبين كذلك ذلك البطل المجهول الذى أنقذ عدداً كبيراً من الناس من حريق السوق الخيرية ، فكان يخرجهم من النافذة ويسلبهم نقودهم وحليهم ..

وتمهل الرئيس لحظة ، ثم استطرد يختم حديثه :

— تلك هى ، فيما نحسب ، الحقبة الأولى من حياتك الغامضة . . تلك الحقبة التى كرستها للاستعداد لهذا النضال الذى نشب بينك وبين المجتمع .. كرستها للتدرب والتأهب وتنمية قواك وبراعتك ودهائك ، حتى بلغت الذروة فى الاجادة والكمال .. فهل تعترف أيها المتهم بهذه الحقائق . . ؟

وفى خلال تلك الخطبة الطويلة كان المتهم يقف فى القفص يبدل قدماً بعد الأخرى وقد تقوس ظهره وتدلت ذراعاه بجانبه فى ارتخاء وتثاقل . . وتزايد الضوء وقتئذ فى القاعة ، فاستطاع الحضور أن يروا هزاله الشديد ، وفكيه البارزين وصدغيه الغائرين ووجهه الهضيم الشاحب الذى تكسوه بقع حمراء صغيرة ، وتظلله لحية نامية .. يا لله ! لقد أنهك السجن قواه وأحاله كهلا محطما . . أما هذا الوجه الصبيح ، وتلك الملامح النضرة التى يتوثب الشباب منها ، والتى طالما نشرت صورتها فى الصحف ، فلم يعد لهما شىء يعرف ..

وكان يبدو كأنه لم يسمع سؤال الرئيس .. فأعيد عليه مرتين .. وأخيراً رفع عينيه وراح يعمل فكره ، ثم بذل جهداً كبيراً قبل أن يغمغم :

— ديزيريه بودرو . . !

فضحك الرئيس ، وقال :

— إنى لاأستطيع أن أفهم تماماً خطة الدفاع التى تريد أن تنتهجها يا أرسين لوبين فاذا كنت تريد انتحال الجنون فذلك شأنك .. ولكنى من جانبي سوف أمضى فى نظر القضية دون أن أشغل نفسى بأباليك وأوهامك ..

ثم راح يفصل تهم السرقة والاحتيال والتزوير المنسوبة إلى أرسين لوبين . . وكان بين آن وآخر يلقى على السجين سؤالا فيجيب بزمجرة خافتة أو لايجيب بشىء البتة . . وتتابع الشهود واحداً فى أثر الآخر ، فكانت شهادة بعضهم خلواً من أى معنى ، على حين كانت شهادة البعض الآخر على جانب كبير من الأهمية .. ولكن الجميع اتفقوا فى ظاهرة واحدة مميزة .. تلك أن كلا منهم كان يناقض أقوال الآخرين ! وهكذا غدت المحاكمة مليئة بالغموض والتناقض المحير ، حتى دعى كبير المفتشين جانيمار .. فأثار دخوله الاهتمام واشرأبت الأعناق وأرهفت الأسماع ..

ومع ذلك فقد استرعى الشرطى المبجل الاهتمام منذ البداية بعلكه .. فقد كان يبدو قلقا غير مرتاح .. وكان لا يفتأ يدير أنظاره نحو السجين فى ضيق وقلق .. ومع ذلك راح يصف الحوادث التى اشترك فيها ، ومطاردته لأرسين لوبين فى أوربا كلها ، حتى وصوله الى أمريكا ..

وكان الحضور يصغون اليه فى انتباه ونهم ، كما يصغون الى قصة شائقة من قصص المغامرات المثيرة ..

ولكنه عندما قارب ختام شهادته ، وبعد أن أشار الى مقابلاته لأرسين لوبين وحديثه معه ، بدأ يتوقف فى حديثه ، ويهيم فى واد من الشرود والذهول .. كان من المحقق أن هناك شيئا ما يشغل عليه فكره ويسيطر على مشاعره . فقال له الرئيس :

— إذا كنت متعبا يا مسيو جانيمار فيمكنك أن تستريح قليلا، ثم تستأنف شهادتك فيما بعد ..

— كلا .. كلا .. ولكنى فقط ...

ثم سكت فجأة وراح يتفرس فى السجين بنظرة طويلة قبل أن يقول :

— هل لى أن أرى السجين عن قرب ؟ هناك سر أريد أن أجلوه ..

وتقدم نحو قفص الاتهام وحدق النظر فى السجين طويلا وهو يركز انتباهه فيه .. وأخيراً عاد الى منصة الشهود ، وقال فى صوت رصين :

— أرجو أن تسمح لى المحكمة بكلمة .. إننى أقسم أن الرجل الذى يقف أمامى ليس أرسين لوبين .

فران على القاعة صمت عميق كالقبور على أثر هذه الكلمات .. وأخذ الرئيس على غرة فى بادىء الأمر ، ثم صاح متعجبا :

— ماذا تعنى ؟ ما هذا الذى تقوله ؟ هل جننت ؟ !

فقال المفتش فى عزم :

— إن المرء قد يخدع لأول وهلة بهذا الشبه الذى يوجد بينهما .. ولكنه لا يحتاج الى كثير من الفحص .. فالأنف ، ولون البشرة .. لماذا ؟ إنه ليس أرسين لوبين

على الاطلاق . . ثم انظروا الى عينيه . . ! هل كان لأرسين لوبين هاتان العينان الحمراوان اللتان تشبهان عيني سكير أو ثور ؟

— أيها الشاهد ..! وضح ما تقول .. ماذا تعني بحق الشيطان ؟

— لست أدري وايم الحق يا سيدي الرئيس . . فلا ريب أنه استبدل بنفسه هذا المخلوق التعس الذي كان يمكن أن يحاكم ويحكم عليه بدلا منه .. ذلك ما لم يكن هذا الرجل شريكا له .

وأثار هذا التحول الخطير غير المنتظر عاصفة من الانفعال في قاعة الجلسة .. وانبعثت هتافات الضحك وصيحات الدهشة من كل جانب .. وما لبث الرئيس أن أمر باستدعاء قاضي التحقيق ومحافظ السجن والحراس ، ثم أجل الجلسة لحين حضورهم .

فلما أعيدت ووجه مسيو بوفيه ومحافظ السجن بالسجين ، فأعلنا أن هناك شبها قليلا في الملامح بين هذا الرجل وأرسين لوبين .

فصاح الرئيس في حنق ودهشة :

— ولكن في هذه الحالة ، من يكون هذا الرجل ؟ ومن أين أتى ؟ وما الذي جاء به الى قفص الاتهام ؟

ودعي الحارسان اللذان كانا يحرسان المتهم في سجن لاسانتيه .. وما كانت أشد دهشة الحضور عند ما عرفا السجين الذي تناوبا على حراسته .. ولكن أحدهما استطرد يقول :

— نعم .. نعم .. أظن أنه هو الرجل نفسه ..

— ماذا تعني بقولك إنك تظن أنه هو ؟

— حسنا .. إنني لم أكن أراه إلا غرارا . . فقد كنت أقوم بنوبتي ليلا . . وظل خلال الشهرين الأخيرين مستلقيا على الفراش ووجهه للجدار .

— ولكن قبل هذين الشهرين ؟

— آه ! قبل ذلك لم يكن في الزنزانة رقم ٢٤

وفسر محافظ السجن الأمر للمحكمة فقال :

— لقد أبدلنا زنزانته بعد محاولته الفرار ..

ـــ ولـكنك أنت ، باعتبارك محافظ السجن لابد أن تكون قد رأيته خلال الشهرين الأخيرين . .

ـــ كلا .. لم يكن هناك مايدعو لذلك .. فقد أخلد إلى الهدوء والسكينة

ـــ أما زلت تقرر أن هذا الرجل ليس السجين الذى عهد به اليك ؟

ـــ كلا ...

ـــ من هو إذن ؟

ـــ لست أدرى . . .

ـــ معنى ذلك أننا أمام حالة شخص استبدل به غيره منذ شهرين مضيا . . فكيف تفسر ذلك ؟

ـــ إننى لاأستطيع تفسيره . .

وفى يأس بالغ تحول الرئيس نحو المتهم وقال فى شبه ضراعة :

ـــ ألا تستطيع أيها المتهم أن توضح لنا كيف ومنذ متى ألقى القبض عليك ؟

ويبدو أن هذا الصوت الرفيق واللهجة الحانية ، قد أزالا ريبة الرجل أو أنعشا فهمه .. فبدأ يجيب متلعثما على الأسئلة التى كانت توجه اليه فى براعة ورفق ، ونجح فى النطق ببعض عبارات متقطعة يفهم منها أنه منذ شهرين اقتيد إلى البوليس بتهمة التشرد حيث قضى ليلة وجزءا من النهار التالى .. فلما تبين أن معه خمسة وسبعين سنتيا ،أطلق سراحه .. وحدث أثناء اجتيازه فناء مركز البوليس أن انقض عليه اثنان من رجال الشرطة وأمسكا بذراعيه ثم أخذاه إلى عربة السجن . . ومنذ ذلك الحين وهو يعيش فى الزنزانة رقم ٢٤ . . كان يعيش عيشة راضية .. فيقدم له الطعام الوفير . . وينام فى راحة ودعة معظم وقته .. وهكذا لم يرفع الصوت بالشكوى أو التذمر

وكان ذلك كله يبدو معقولا قريب الاحتمال .. وفى وسط عاصفة من الضحك والانفعال أمر الرئيس بتأجيل القضية إلى دور مقبل لتحقيق هذا الأمر تحقيقاً وافياً ..



ولقد تبين من التحقيق بعد ذلك وجود مذكرة بدفتر أحوال المخفر ، تشير إلى

أن رجلا يدعى ديزيريه بودرو قضى منذ ثمانية أسابيع ليلته بالمخفر ، ثم أطلق سر
فى اليوم التـــالى ، فانصرف فى الساعة الثانية بعد الظهر . . وفى الساعة الثانية
من بعد ظهر ذلك اليوم ، غادر أرسين لوبين مركز البوليس بعد اختتام التحقيق
إلى سجن لاسانتيه فى عربة السجن .

فهل نشأ الخطأ من الحراس أنفسهم وخدعهم الشبه الظاهرى بين لوبين وهـ
الشاب الصعلوك ، فاستبدلوا هذا بذلك عن حسن نية وفى غير وعى ؟ ذاك أمر بعي
الاحتمال لما لهؤلاء الحراس من خبرة وافية وخدمة طويلة

أم أن هذا الاستبدال كان مدبرا من قبـــل ؟ إننا لو غضضنا النظر عن الحقي
الثابتة من أن ذلك مستحيل عمليا كما قررت السلطات المختصة ، فمن المحقق فى هذه الح
أن يكون بودرو هذا شريكا لأرسين لوبين وترك نفسه يقبض عليه بتهمة التشرد لغر
واحد هو الحلول محل لوبين فى السجن .. ولـكن حينئذ باية معجزة يمكن أن تنج
خطة كهذه قوامها سلسلة من المصادفات غير المحتملة الوقوع ، ومقابلات غير مؤكد
الحدوث ، وأخطاء خيالية قد لاتمر دون اكتشاف

وأجريت على ديزيريه بودرو سلسلة متتابعة الحلقات من الاختبارات والمقـــايي
الشخصية .. فلم تنطبق عليه أية صفة من صفات أرسين لوبين .. والأكثر من ذلك أ
أمكن اكتشاف آثاره فى سهولة .. فقد كان معروفا حق المعرفة فى كوربفوا ، وأسني
وليفالوا . وكان يعيش على الاستجداء والتسول ، وينام فى أكواخ جامعى الخر
القديمة التى توجد بكثرة بالقرب من استحكامات تيرن .. ولـكنه اختفى عن الأنظـ
منذ عام أو نحوه

أم هل أرغمه أرسين لوبين على صنع ما فعله وذكر ما قاله ؟ . لم يكن ثمة ما يؤ
مثـــل هذا الرأى . . وعلى فرض صحته فانه لا يلقى بصيصا من الضوء على واقعة فرا
السجين فى حـــد ذاتها . . . فقد ظلت تلك الاعجوبة الخارقة يكتنفها أشد الغموض
كانت من قبل .. وذكرت عشرات من الفروض تفسيرا لهذا الفرار ولـكن لم يكـ
بينها فرض واحد مقنع يصمد أمام التنفيذ .. ولم يكن هناك سوى شىء واحد لا يتطر
اليه الشك أو الريب ، ذلك هو أن أرسين لوبين قد نجح فى الفرار من السجن .. وهـ

فرار لا يدرى أحـد كنهه أو يفهم سره ، وإنما أحس الجمهور والسلطات فيه أنه كان وليد تدبير محكم طويل ، وثمرة مجموعة من الألاعيب الغامضة الشبيهة بألعاب الحواة .
وكان الغرض منها جميعاً تحقيق نبوءة لوبين عندما قال فى زهو ويقين :
« إننى لن أكون حاضرا فى جلسة المحاكمة . . »



وبعد شهر كامل من الابحاث الدقيقة ، ظل اللغز غامضا مستغلقا كما كان فى البداية. ومع ذلك كان من المستحيل أن يستمر اعتقال ذلك التعس الصعلوك ديزيريه بودرو إلى مالا نهاية . . وكان من السخف أن يقدم إلى المحـاكمة ، إذ لا يمكن توجيه تهمة معينة اليه .
ولم يجد قاضى التحقيق مناصاً من الافراج عنه . . غير أن مدير البوليس صمم على مراقبة حركاته بعد اطلاق سراحه مراقبة دقيقة وافية .
وكان جانيمار هو الذى اقترح ذلك . . فنى رأيه أنه لم يكن شريكا للوبين كما أن الحادث ليس وليـد المصادفة البحتة . . كان بودرو فى رأيه آلة استخدمها لوبين بمهارته المعهودة . . فاذا ظلوا يراقبون ذلك التعس ويقتفون أثره ، فقد يكون ثمة بصيص من الأمل والرجاء فى أن يهتدوا بواسطته إلى أرسين لوبين ، أو على الاقل إلى أحـد أفراد عصابته . . .
وذات صباح انتشر فيه الضباب وأظلم الجو ، فى شهر يناير ، فتحت أبواب السجن الرهيبة أمام ديزيريه بودرو . .
وكان فى بادىء الأمر يبدو قلقا متبرما بنفسه ، ويسير كرجل لا يدرى أين يذهب أو كيف يقضى وقته . . وأخـذ يسير منحدرا فى شارع لاسانتيه ، ثم شارع سان جاك حيث توقف برهة بأحد حوانيت الثياب القديمة ، ثم نزع سترته وصدارته وباع الصدارة بدراهم قليلة وارتدى سترته ثانية ثم مضى فى طريقه . .
واجتاز نهر السين ، حتى إذا مابلغ الشاتليه ، مرت به إحدى الحافلات ، فحاول أن يستقلها إلا أنها كانت مكتظة بالركاب ، ومن ثم مضى إلى محطة الحافلات ليحجز لنفسه محلا ويبتاع تذكرة ، ثم دلف إلى حجرة الانتظار . .

وأومأ جانيار إلى مساعديه المفتشين ديوزى وفولنفانت أن يدنوا منه ، ثم قال عجلة وهو لا يحول أنظاره عن باب محطة الحافلات :

— احجزا عربة حالا .. كلا .. بل اثنتين ، فذلك أفضل .. وسيصحبنى أحدكما العربة الأولى ويستقل الآخر الثانية كى يمكننا مراقبته جيدا . .

ونفذ المفتشان أمر رئيسهما .. ومع ذلك فلم يظهر بودرو ثانية .. فذهب جانيار حجرة الانتظار .. وإذا بها خالية خاوية ..

وغمغم يقول فى غيظ :

— يا لى من أحمق !.. لقد نسيت أن لها منفذا آخر ! . .

والواقع أن محطة الحافلات كانت متصلة بمثيلتها فى شارع سان مارتان ، فاندفع جانيار فى الممر الموصل بين الاثنتين ! وما كاد يخرج من الباب الثانى حتى لمح بودرو فى أعلى الحافلة الذاهبة إلى حديقة النباتات، وكانت عندئذ تنعطف عند ركن شارع ريفولى . . فأسرع يعدو وراءها حتى أدركها فى المحطة التاليـة ، ولكنه بذلك فقد مساعديه واضطر إلى الاستمرار فى المطاردة وحده . .

وشعر جانيار ، وهو فى غمرة حنقه وغيظه ، برغبة جامحة فى أن ينقض على بودرو فيمسك بتلابيبه ويوسعه ضربا ولكما ! ألم يتعمد ذلك الأبله المزعوم بحيلة ما كرة أن يفصله عن مساعديه ؟

ورمق بودرو من طرف خفى فرآه يتاوم النعاس ورأسه يميل يمنة ويسرة ، وقد انفرجت شفتاه واكتسى وجهه لمحة من البلاهة والبلادة .. كلا .. إن مثل هذا المخلوق لا يصلح لأن يكون خصما لجانيار العجوز .. ولا ريب أن الصدفة وحدها هى التى هيأت له هذا العمل ..

وعند ميدان لافاييت غادر بودرو الحافلة واستقل ترام لامويت ، فحذا جانيار حذوه . وبعد أن قطعا طريق هوسمان وشارع فكتور هوجو ، هبط بودرو فى محطة لاموبت ومضى فى خطوات متمهلة نحو غابة بولونيا ..

وأخذ ينتقل من ممر الى آخر ، ثم يعود أدراجه من حيث أتى ، ثم يكر راجعاً من جديد .. ترى ما الذى يبحث عنه ؟ وهل ثمة غرض معين يسعى اليه ؟

وبعد ساعة من هذه المناورات الغريبة بدا الرجل متعبا مكدودا . . فجلس فوق أريكة خالية ، فى موضع مقفر على ضفة بحيرة صغيرة بين الأشجار المتكاثفة . . فمضت نصف ساعة أخرى دون أن يتحرك من مكانه حتى ضاق جانيار ذرعا ، ونفد صبره ، وعول على أن يجاذبه الحديث .. فتقدم نحوه ، واتخذ مجلسه بجانبه ، ثم أشعل لفافة وراح يرسم على الرمل بطرف عصاه ، وما لبث أن قال :

ـ إنه يوم شديد البرودة ..

ولكنه قوبل بصمت مطبق .. صمت ثقيل كان يرزح فوق صدر جانيار ويكاد يخمد أنفاسه . .

وعلى حين غرة ، انبعثت وسط هذا الصمت قهقهة عالية تنم عن السعادة والغبطة .. قهقهة كانت تجلجل وتتتابع أمواجها فى الفضاء كطفل انتابته نوبة من الضحك فلا يستطيع الامساك عنه ، ويظل يضحك ويمعن فى الضحك ..

فأحس جانيار بقشعريرة باردة تسرى فى بدنه ، وبشعره يقف فوق رأسه حتى غدا أشبه بشوك القنفذ ..

فهذه القهقهة اللعينة .. إنه يعرفها حق المعرفة ..!

وفى حركة مفاجئة ، انقض على الرجل فأمسك بتلابيبه وراح يتفرس فيه بنظرة تكاد تخترق اللحم والعظام .. نظرة أشد قوة ونفوذا من تلك التى حدجه بها فى قاعة المحكمة .. فطالعته الحقيقة الرهيبة .. فهذا الواقف أمامه لم يعد الرجل الأبله البليد الذى رآه فى المحكمة .. إنه هو شكلا وهيئة ، ولكنه فى الوقت نفسه كان الآخر .. الحقيقى .. !

وسبقته مخيلته فاستشف وراء هاتين العينين ذلك البريق المعهود . . ورأى الوجنات الغائرة تمتلىء باللحم الغض .. والبشرة المغضنة الجافة تنقلب نضرة متوردة .. وذلك الفم المتهدل المشوه يتحول الى تلك الابتسامة الساخرة المألوفة .. وفوق ذلك كله رأى جانيار هذه الأسارير البليدة الخاملة تكسوها تلك اللمحة النفـاذة المتدفقة بالحيوية والمليئة بالسخرية ، والفياضة بالشباب والنضارة ..

وكان جانيار يهتف بصوت متحشرج وهو يترنح كالثمل:

— أرسين لوبين ..! أرسين لوبين !

وفى غمرة الغضب الهائل الذى أعماه ، أطبق جانيمار على عنق خصمه وهو يحاول أن يطرحه أرضا .. فقد كان جانيمار ، رغم أنه تجاوز الخمسين من عمره ، على جانب كبير من القوة الخارقة ، بينما كان خصمه بادى الضعف والانهاك .. وسوف يكون عملا باهرا لو استطاع أن يقبض عليه ويعيده الى السجن ثانية ..

ولكن النضال كان قصيرا .. فلم يحرك أرسين لوبين ساكنا للدفاع عن نفسه إلا أن مد يده الى الأمام .. فاذا بجانيمار يرتد الى الوراء مصعوقا وقد تدلى ذراعه الى جانبه كالمشلول .

وكان لوبين يقول :

— لو أنهم فى إدارة البوليس علموك الصارعة اليابانية لعلمت أن هذه الحركة من أوليات هذا الفن ..

ثم أضاف فى برود :

— لو طال الأمر ثانية واحدة أخرى لكسرت ذراعك ، ولكنت قد نلت ما تستحقه .. نعم فأنت ، ذلك الصديق القديم ، الذى أقدره كل التقدير ، والذى بلغ من ثقتى فيه أن كشفت الستار أمامه عن تنكرى بمحض اختيارى ، فاذا بك تريد أن تستغل هذه الثقة أسوأ استغلال ؟.. هذا خطأ جسيم منك يا صديق ! . . آه ! . ماذا حدث الآن ؟..

وكان جانيمار صامتا حزينا . . فقد كان يعد نفسه مسئولا عن هذا القرار . . أليس هو الذى ضلل العدالة بشهادته أن الماثل فى قفص الاتهام ليس أرسين لوبين ؟. إن هذا القرار يبدو له كأسوأ نقطة فى حياته البوليسية كلها .. وعندئذ كانت قطرتان من الدموع تسيلان على وجهه وتختفيان فى شاربه الأشيب الكثيف . .

ومضى لوبين يقول :

— يا إلهى !.. ماذا دهاك يا جانيمار ؟.. إنك لاينبغى أن تنظر للأمر هذه النظرة فلو لم تتكلم لكنت قد أدت العدة لأن يتكلم شخص غيرك هيا . . هيا . ! هل كنت تعتقد أننى أسمح لهم بأن يحكموا على ديزيريه بودرو ؟..

فغمغم جانيمار :

— إذن فأنت الذى كنت هناك ؟. وأنت الذى تقف أمامى الآن ؟..

— نعم .. أنا نفسى .. ولا أحد غيرى ..

— أهذا ممكن ؟.. يا إلهى !..

— آه !.. إن المرء لا يحتاج إلى أن يكون ساحراً حتى يفعل ذلك !.. فيكفى كما قال ذلك القاضى المبجل أن يتدرب المرء اثنى عشر عاما أو نحو ذلك كى يكون على أتم الأهبة لأى طارىء ..

— ولكن .. وجهك ؟.. وعينيك ؟..

— يجب أن تفهم أننى عندما اشتغلت ثمانية عشر شهراً بمستشفى سان لوس ، مع الدكتور ألتير ، لم يكن ذلك لمجرد اللهو أو حب العلم فى حد ذاته . . فقد أدركت أن الرجل الذى سيتشرف يوما من الأيام بحمل اسم أرسين لوبين ينبغى أن يتحرر من القيود الجامدة الخاصة بالمظهر الشخصى وتحقيق الشخصية . . فيمكنك أن تعدل شكلك وتبدله كيفما شئت..فان حقنة واحدة تحت الجلد من زيت البرافين تمطط جلدك إلى الحد الذى ترغب فيه..وحمض (البيروجاليك) يحول بشرتك إلى ما يشبه بشرة الهنود ...كما أن عصير السيلاندين يملأك بالبثور والثآليل من النوع المستطاب !.. وهناك أنواع من العقاقير تؤثر على نمو الشعر واللحية ، وأخرى تغير الصوت وتبدله وفق إرادتك . . أضف إلى ذلك شهرين كاملين من الحمية فى الزنزانة رقم ٢٤ ، والتدريب المستمر على فتح الفم بحيث يبدو على هذا النحو المتهدل وميل الرأس وإحناء الظهر بهذه الحدبة التى رأيتها ..وأخيراً خمس قطرات من الأتروبين فى العينين فتتسع حدقتاهما وتتهدل أجفانهما وهكذا تم الخدعة ..

— ولكنى لا أفهم كيف أن الحراس ..

— لقد كان التغيير بطيئا مطرداً . . وما كان فى وسعهم قط أن يلاحظوا تطوره يوميا ..

— ولكن ديزيريه بودرو ؟..

— بودرو شخص حقيقى .. وهو متسول بائس دمث الخلق ، قابلته فى العام الماضى فرأيت أن ملامحه قريبة الشبه من ملامحى !.. ولما كان من بعد النظر أن أتوقع

القبض على فى أى وقت ، فقد وضعته فى مكان أمين بحيث يطعم وينام فى غنى عناء ، ثم بدأت أحدد منذ البداية أوجه الشبه بينى وبينه ، بحيث أستطيع أن أتقمص شخصيته كلما دعت الحاجة .. وقد دبر أعوانى الأمر بحيث يقضى بودرو ليلة فى مركز البوليس ، ثم يغادره فى نفس الوقت الذى أخرج منه فيه ، وبحيث يمكن إثبات هذا التوافق بسهولة .. فلا تنس أنه كان من الضرورى أن يثبت رسميا وجود هذا الشخص ، وإلا راحت السلطات تبحث وتستقصى عن حقيقة شخصيتى .. وهكذا زججت ببودرو هذا فى الموضوع بحيث كان من المحتم .. هل تفهمنى جيدا ؟ .. كان من المحتم أن تقتنع السلطات بعملية الاستبدال على الرغم من المصاعب التى تعترض مثل هذا العمل ، وأن تفضل الاقتناع بهذا الاستبدال عن الاعتراف بجهلها وغفلتها ..

فغمغم جانيمار :

— نعم .. نعم .. هذا حق !..

فصاح لوبين فى جذل :

— ولا تنس أننى كنت من بادىء الأمر أمسك بورقة رابحة عظيمة القيمة .. ورقة عددتها فى إحكام لأهىء الأذهان لما سوف يحدث .. ذلك هو توقع الجميع لفرارى .. وها أنت ذا ترى مدى الخطأ الجسيم الذى ترديت فيه أنت والآخرون ، فى تلك المباراة الحامية الوطيس بينى وبين القانون على حريتى .. فقد اعتقدت مرة أخرى أننى أقول ذلك من قبيل الزهو والتفاخر .. وأننى قد ثملت بخمر النجاح ، كأى غر أبله يستخفه الغرور .. هل تتصور أننى ، أرسين لوبين ، أقع فريسة لمثل هذا الضعف البشرى ؟.. وكما فعلت فى قضية قصر مالاكيس وصاحبه البارون كاهورن ، غاب عنك أن تقول لنفسك : « فى اليوم الذى يعلن فيه أرسين لوبين من فوق أعالى المنازل أنه ينوى الفرار فلا ريب أن لديه باعثا خفيا على إعلانه ذلك » .. وغاب عنك أنه كى يمكننى الفرار دون أن أهرب فعلا ، كان من الضرورى أن يعتقد الناس مقدما فى فرارى ، وأن يكون ذلك عقيدة ثابتة واقتناعا راسخا لديهم ، أشد وضوحا من ضوء النهار ؟.. وقد صح حدسى وجاءت الأمور وفق ما اشتهيت ودبرت .. كان كل شخص يقول : أرسين لوبين يزمع الفرار .. أرسين لوبين لن يحضر جلسة المحاكمة !.. فلما وقفت وقلت : « هذا الرجل

ليس أرسين لوبين » كان مما يجافى طبيعة البشر أن يشك الحاضرون لحظة واحدة فى حقيقة ما تقول .. لم تخالج أحدا ذرة من الشك فى أننى لست أرسين لوبين .. ولو أن شخصا واحدا أعرب عن شكه أو نطق بما ينم عن الحيطة كقوله : « ولكن هب أنه أرسين لوبين » إذن لقضى على فى تلك اللحظة .. كان يكفى أن يفحصونى عن كثب، لا بفكرة أننى لست أرسين لوبين ، كما فعلت وفعل الآخرون جميعا ، بل باحتمال أننى قد أكون أرسين لوبين .. وحينئذ كان حتما أن يعرفونى .. ولكنى كنت مطمئنا كل الاطمئنان فقد كان من المحال منطقيا ونفسانيا ، أن تطرأ هذه الفكرة البسيطة على بال أحد ..

وأمسك بذراع جانيمار فجأة واستطرد قائلا :

— هيا اعترف ياجانيمار إنك بعد أسبوع من حديثك معى فى سجن لاسانتيه كنت تنتظرنى فى الساعة الرابعة بمنزلك كما طلبت اليك !

فتحاشى الشرطى هذا السؤال المحرج وقال :

— ولكن .. عربة السجن الزائفة ؟

— كانت مجرد خدعة .. فقد زيف أعوانى هذه العربة العتيقة واستبدلوا بها واحدة من عربات السجن الحقيقية . . وكانوا يريدون تجربة هذا الاختبار . . ولكنى كنت أعلم أن مثل هذه الوسيلة ليست عملية بدون مساعدة ظروف خارقة شاذة . . ولكنى فكرت فى استخدامها لتجسيم فكرة الفرار فى أذهان الناس ، فكانت تلك المحاوله الذائعة الصيت . . ولا ريب أن الفرار أول مرة يضفى على عملية الفرار الحقيقية قيمة كبرى

— وعلى ذلك فان السيجار ....

— أنا الذى أعددته ، وكذا مقبض السكين ، ووضعت فيهما تينك الرسالتين ...

— ولكن الرسالة الأولى ؟ . .

— أنا الذى كتبتها ...

— وتلك الصديقة المجهولة التى كانت تكتب لك ؟ .

— إنها وأنا شخص واحد . . ففى وسعى أن أكتب أى خط أريده ..

ففكر جانيمار لحظة ثم قال :

— ولكن كيف حدث أن المقاييس التى أخذت لبودرو فى ادارة تحقيق الشخصية لم تتطبق على مقاييس أرسين لوبين ؟.

— لأنه لا توجد لأرسين لوبين صحيفة اثبات شخصية .

— هراء ! . لقد رأيتها بنفسى .

— أعنى أنها ليست صحيحة . . وهذا أمر أوليته الكثير من عنايتى ودراستى ، ووجدت أننى ينبغى أن أدفع ثمنه . . وقد حدث قبل عودتى من أمريكا أن قبل أحد موظفى تحقيق الشخصية هدية من المال كى يدخل بعض التعديل على مقاييسى . . وكانت النتيجة أن الصحيفة الخاصة بى وضعت فى قسم يختلف كل الاختلاف عن الذى كان ينبغى أن توضع فيه . وهكذا لم تتفق مقاييس دزيريه بودرو مع مقاييس أرسين لوبين .

وأخلد جانيمار إلى الصمت مرة ثانية ، ثم قال :

— وما الذى اعتزمت فعله الآن ؟.

— الآن ؟ . سوف أخلد إلى الراحة وأعمد إلى تغذية نفسى حتى أعود إلى حالتى الطبيعية ثانية . . فقد يكون جميلا أن تتقمص شخصية دزيريه بودرو أو غيره ، وأن تبدل من شخصيتك فى مثل السهولة التى تبدل بها حذاءك ، وأن تختار مظهرك ، وصوتك ، وخطك .. ولكن يأتى عليك وقت تنكر فيه نفسك وسط كل هذا التغير والتبديل . . وهذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى أحس الآن أننى كالرجل الذى يبحث عن ظله . ولذلك فسوف أعنى بنفسى حتى أهتدى إلى نفسى مرة أخرى .

وكان يسير ذهابا وجيئة ، وقد بدأ ضوء النهار يخفت ويتضاءل . وما لبث أن وقف أمام جانيمار وقال :

— أحسب أن كلامنا منا قد قال كل ما لديه للآخر ؟

فأجابه المفتش :

— كلا . . فانى أود أن أعرف هل تنوى نشر الحقيقة فى أمر فرارك . . والخطأ الذى وقعت فيه .

— آه !. كلا . . فلن يعرف أحد قط أن أرسين لوبين هو الذى أطلق سراحه .. فمن مصلحتى أن يظل فرارى محوطا بالغموض والخفاء ، وإلا جردته من طبيعته العجيبة

الخارقة .. فلا تخش شيئا أيها الصديق العزيز ... ووداعا .. فانى مدعو إلى وليمة عشاء الليلة ولم يبق من الوقت إلا ما يكفى لارتداء ثوب السهرة !.

— حسبتك متلهفاً على الاخلاد إلى الراحة .

— وا أسفاه !. هناك قيود اجتماعية من المحال أن يفر المرء منها .. ولذلك لن أبدأ فترة الراحة والاستجمام إلا من الغد .

— وهل لى أن أسألك أين تذهب الليلة؟

— طبعاً . طبعاً . . لك أن تسألنى ذلك . . فانى مدعو إلى العشاء فى السفارة البريطانية !.

القسم الثانى

المسافر الغامض

كنت قد أرسلت سيارتى إلى روان فى اليوم السابق بالطريق الزراعية ، على أن ألحق بها فى القطار ، حيث أذهب لزيارة بعض الأصدقاء الذين يقيمون فى ضيعة جميلة على ضفاف السين .

وقبل أن نبرح باريس بدقائق معدودات ؟ ألفيت مقصورتى يغزوها سبعة من المسافرين كلهم من الرجال ! ومنهم خمسة ينفثون دخان لفائفهم فينعقد سحبا كثيفة فى سقف المقصورة . . وعلى الرغم من قصر الرحلة بالقطار السريع ، فان صحبة هؤلاء السادة لم تكن بالتى تروق لى ، وخصوصا أن العربة كانت من الطراز العتيق الخالى من الممر أى أن كل مقصورة يفتح بابها على الافريز مباشرة .. فلم أجد مناصاً من أن أتأبط معطفى وجرائدى ثم ألجأ إلى إحدى المقصورات الأخرى المجاورة . .

وكانت لا توجد بها غير سيدة واحدة ، فما كادت ترانى حتى اكتست أساريرها لمحة من الضيق لم يفتنى ملاحظتها ، ثم انثنت نحو رجل كان يقف على الافريز ، وهوزوجها على الأرجح ، وقد أتى لتوديعها . . فرمقنى بنظرة فاحصة يبدو أنها انتهت لمصلحتى إذ راح يتحدث إلى زوجته بصوت خافت ويبتسم لها كما نحاول أن نطمئن طفلا جزوعا .. فابتسمت بدورها وتلفتت نحوى فألقت على نظرة ود واطمئنان ، كأنما تبينت فجأة أنى من أولئك الرجال المهذبين الذين يمكن للسيدة أن تظل معهم ساعة أو ساعتين حبيسة

فى مقصورة صغيرة لا تزيد مساحتها عن ستة أقدام مربعة ، دون أن تخشى شيئاً ..

وقال لها زوجها :

— معذرة ياعزيزتى .. فان لدى موعداً هاماً ، ولن أستطيع الانتظار . .

ثم قبلها فى جب عميق وانصرف ، بينما كانت السيدة تبعث اليه بالقبلات على أطراف أناملها وتلوح له بمنديلها ...

وعندئذ دوى صفير الحارس ، فتحرك القطار للمسير ..

وفى تلك اللحظـــة بالذات ، وعلى رغم صياح موظفى السكة الحديدية محذرين ، فتح باب ، مقصورتنا فجأة ، واندفع رجل اليها وهويلهث كأنما قدم فى اللحظة الأخيرة ..

وكانت رفيقتى عندئذ واقفة تنظم حقائبها فوق الرف ، فأطلقت صرخة فزع مروعة ثم تهاوت على المقعد خائرة القوى ..

ولا ريب أننى لست جباناً أو ضعيفاً .. ولـكنى أعترف أن مثل هـــذه الغزوات الفجائية ، وفى اللحظة الأخيرة ، مما يبعث على الضيق والتوجس ، لما يكتنفها من غموض ولمنافاتها لطبائع الأشياء .. حتى ليجزم المرء أن وراء الأكمة ما وراءها .. !

ومع ذلك فان مظهر القادم وهندامه كانا خليقين بأن يزيلا الأثر السيء الذى أحدثته طريقة دخوله الفجائى.. كان أنيق الثياب إلى حد بعيد ، فربطة عنقه تنم عن ذوق سليم وقفازاه من نوع فاخر .. وكانت أساريره وملامحه تدل على قوة عظيمة .. ولـكن أين رأيت هذا الوجه بحق السماء ؟ . . لا ريب أننى رأيته من قبل .. أو على وجه التحقيق فقد خالجنى شعور قوى بأننى سبق لى أن رأيت صورة هـذا الوجه كثيراً إن لم أكن رأيت صاحبه شـــخصياً . . وفى الوقت ذاته أدركت عبث الجهد الذى أبذله فى تذكر شىء عنه ..

ولـكنى عندما تحولت أنظارى نحو السيدة ، دهشت لما طالعنى فى محياها من شحوب شديد ، وخوف داهم .. كانت تحدق النظر إلى جارها — فقد جلس على نفس الأريكة — فى فزع مروع .. كما لمحت يدها تتسلل خلسة ، فى رعدة غريبة ، نحو حقيبة يدوية صغيرة كانت ملقاة على الأريكة على قيد أنملة منها . . وما لبثت أن أمسكت بها وجذبتها نحوها فى عصبية ..

والتقت أنظارنا ، فقرأت فى عينيهـــا قدراً عظيما من القلق واللهفة ، بل الفزع الرهيب ، بحيث لم أملك نفسى من أن أقول لها :

— أرجو أن تكونى على ما يرام ياسيدتى .. هل أفتح النافذة .. ؟

فلم تجبنى .. ولكنها راحت تومىء لى خفية نحو الرجل . . فابتسمت لها كما فعل زوجها من قبل ، ورفعت كتفى فى غير مبالاة ، ثم بينت لها بالاشـــارة أنه ليس ثمة ما يدعو إلى الجزع ، وأننى موجود إلى جانبها .. كما أن الرجل فضلا عن ذلك لايبدو مثيراً للقلق أو الخوف ..

وفى تلك اللحظة تحول المسافر نحونا .. وبعد أن ظل يتفرس فينا برهة من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، اضطجع فى مقعده . . ولم يحر حرا كا بعد ذلك . .

وتلت ذلك فترة ران علينا الصمت خلالها .. بيد أن السيدة راحت تستجمع قواها فى يأس بالغ ، وما لبثت أن غمغمت تقول لى فى نبرات متهدجة لا تكاد تبين كلماتها :

— هل تعلم أنه فى هذا القطار ؟.

— من ؟.

— لماذا ؟.. هو .. هو نفسه .. إنى أؤكد لك أنه ..

— ولكن من تعنين يا سيدتى ؟ . .

— أرسين لوبين !..

وكانت لا تحول أنظارها عن المسافر المجهول .. بل إنها عندما نطقت بهذا الاسم الرهيب كانت كأنما توجه القول اليهدونى ..

وعندئذ جذب قبعته فوق عينيه ، فما أدرى هل فعل ذلك ليخفى اضطرابه ، أم كان يتأهب للنوم فحسب . .

وعارضتها قائلا :

— لقد حكم على أرسين لوبين بالأمس غيابيا بالسجن عشرين عاما . . وليس من المعقول أن يرتكب هذه الحماقة بالظهور علانية اليوم وسط الناس .. وفضلا عن ذلك فقد اكتشفت الصحف أنه يقضى الشتاء فى تركيا ، منذ فراره المعروف من سجن لاسانتيه

فأعادت السيدة القول فى إصرار، وهى ترفع صوتها عامدة كأنها تريد أن يسمعها رفيقنا:

— بل هو فى هذا القطار .. فان زوجى هو نائب محافظ السجن ، وقد أخبرنا ناظر المحطة نفسه أنهم كانوا يبحثون عن أرسين لوبين ..

— ولكن ذلك ليس سبباً فى ..

— لقد رئى فى شباك التذاكر .. وابتاع تذكرة إلى روان ..

— لو صح ذلك لقبضوا عليه فى سهولة .؟

— ولكنه اختفى كأنما ابتلعته الأرض .. فلم يره جامع التذاكر عند باب الدخول فحسبوا أنه اجتاز حتما أحد الأقبية إلى الأفاريز الخلفية ، وصعد إلى القطار الذى يبرح المحطة بعدنا بعشر دقائق ...

— فى هذه الحالة لاريب أنهم قد قبضوا عليه هناك ؟ .

— وهب أنه فى اللحظة الأخيرة ، وثب من القطار الآخر إلى قطارنا هذا . . كما يرجح ، بل من المؤكد ، أنه فعل ؟..

— فى هذه الحالة فسوف يقبضون عليه هنا . . فلا ريب أن الحمالين ورجال البوليس لم تفتهم رؤيته وهو يثب من قطار لآخر ، وسوف يقع فى الشرك عندما نصل إلى محطة روان ..

— هو ؟.. محال !.. سوف يجد حتما وسيلة ما للفرار ثانية !..

— إذن ليس لى إلا أن أرجو له سفراً سعيداً !..

— ولكن فكر فيما عسى أن نفعله فى هذه الأثناء .. — ماذا ؟..

— ومن أين لى أن أعرف ؟.. يجب أن نأخذ أهبتنا لكل احتمال !..

كانت السيدة شديدة الاضطراب .. والواقع أن الموقف كان إلى حد ما يبرر حالة الانفعال واللهفة التى تملكتها .. فقلت رغما عنى :

— صدقت .. فهناك أشياء تحدث للانسان نتيجة لبعض المصادفات العجيبة .. ولكن هدئى من روعك ياسيدتى .. فاذا سلمنا بأن أرسين لوبين موجود حقا باحدى عربات هذا القطار ، فلا شك أنه سيخلد إلى الهدوء ، ويتحاشى أن يجلب لنفسه متاعب جديدة ولن يفكر فى شىء إلا أن يتجنب الخطر الذى يهدده ..

وقد فشلت هـــذه الـكلمات فى بعث الطمأنينة إلى نفسها .. ولـكنها أخلدت إلى الصمت وقد خشيت بلا ريب أن يتملكنى الملل من حديثها أو أبرم بصحبتها ..

أما أنا فقد تناولت إحـدى الصحف ، ورحت أقرأ تفاصيل محاكمة أرسين لوبين والحـكم عليه غيابيا .. ولم تـكن تحوى شيئا أجهـــله ، ولذلك لم أهتم بما جاء فيها .. وفضلا عن ذلك فقد كنت متعبا ، بعد ليلة قضيت معظمها مسهدا .. وما لبث أن شعرت بجفونى تتثاقل ، وبدأ رأسى يميل فوق صـدرى . .

وعندئذ صاحت السيدة وهى تختطف الصحيفة من يدى وترمقنى فى ازدراء :

— ولـكن من المحقق أنك لن تنام ياسيدى . . ؟

— كلا ياسيدتى .. كلا .. ليس بى رغبة إلى النوم . .

— إن ذلك يـكون عملا بعيداً عن الحـكمة والصواب ياسيدى . .

— نعم .. نعم .. كثيراً ...

ورحت أناضل النعاس فى عزم صلب .. فجعلت أحدق النظر خـــلال النافذة إلى المناظر الجميلة التى نمر بها ، حتى استقرت على تلك الرقائق من السحب البيضاء الشبيهة بقطيع من الحملان البيض يعدو بعضها فى أثر البعض . وسرعان ما اختلطت هذه المناظر فى الفضاء أمام ناظرى ، وامحت صورة السيدة المذعورة والرجل الناعس من مخيلتى ، وأحسست بذلك السكون العميق العظيم .. سكون الاستغراق فى النوم !

ولقد زاد من روعته ولذته ، ذلك الضياء الذى كان يلوح أمام عينى ، وتلك الأحلام التى تبدت لى ، والتى كان قوامها شبح ذلك الرجل الذى يقوم بدور أرسين لوبين ويحمل اسمه .. كنت أراه يتراقص على صفحة الأفق ، وقد أثقل ظهره بالنفائس والأشياء الثمينة ويتسلق الجدران العالية ، ويسطو على القصور الشامخة فيجردها من أثمن ماتحتويه ...

ولـكن ذلك الشبح ، الذى انقلبت هيئته ولم يعد من أرسين لوبين فى شىء ، بدأ يزداد وضوحا وجلاء .. وكان يقبل نحوى ، وهو يكبر ويتضخم ، ثم وثب إلى المقصورة فى خفة لايصدقها العقل ، حتى شعرت به يقع بثقله كله فوق صدرى ..

وشعرت بألم حاد .. ومزقت السكون صرخة هائلة . . فاستيقظت . . وكان الرجل رفيقنا وزميلنا فى المقصورة . . يجثم بركبتيه فوق صدرى ، وينشب أصـــابعه فى عنقى

وكنت أرى ذلك فى غير وضوح ، اذ احتقنت عيناى بالدماء .. ولكنى رأيت أيضاً السيدة قابعة فى ركن المقعد ، وقد تملكتها نوبة عنيفة من الهستريا .. ولم أحاول المقاومة، فما كانت بى قوة لها ، حتى لو أردت .. كان صدغاى ينبضان فى عنف ، وقد أوشكت أنفاسى على الاختناق .. واشتد الضغط حول عنق ، فأيقنت أنه لن تمضى دقيقة أخرى حتى ألفظ النفس الأخير ..

ولا ريب أن الرجل قد أحس بذلك ، إذ خفف الضغط على عنق .. ودون أن يتركنى ، نشر بيده اليمنى حبلا رفيعا كان قد أعد به أنشوطة ، ثم قيد يدى معا بحركة سريعة وأصابع مدربة ..ولم تمض لحظة حتى كنت مقيدا ، مكمما ،لا أستطيع حراكا ، ولا حيلة لى فى شىء ..

ولقد قام الرجل بذلك كله فى هدوء عجيب وطمأنينة بالغة ، مما كشف عن علم راسخ وعبقرية عريقة فى عالم السطو والجريمة .. كان هدوؤه وجرأته مما يثير الدهشة ويبعث على العجب.. بينما كنت ملقى فى ركن مقعدى ، ملفوفا بالأربطة كالمومياء !

كانت هذه حالى ..! أنا .. أنا أرسين لوبين ..!

وكان هذا يبعث على الضحك بلا مراء .. وعلى الرغم من خطورة الموقف ودقة الظروف لم أتمالك نفسى من الاعجاب والاستمتاع بهذه اللمحة من سخريه الأقدار .. فها هو أرسين لوبين يقع فى الشرك كأى أبله ..! ويسلب ماله كأنه ريفى ساذج - فقد جردنى الوغد من حافظتى وكيس نقودى - أرسين لوبين يصبح مجنياً عليه بدوره ، ويغرر به ، ويهزم شر هزيمة ..؟ أرسين لوبين يسقى من الكأس التى طالما جرعها للآخرين..؟ألا ما أروع سخرية القدر.. !

ولم يعر السيدة أدنى قسط من الاهتمام .. واكتفى بأن يمد يده فيتناول حقيبتها اليدوية التى كانت ملقاة على الأرض ، ويستخرج ما بها من حلى ومجوهرات كثيرة كانت بداخلها ، وكذلك كيس النقود . وفتحت السيدة عينيها، فسرت فى بدنها رعدة الفزع والذعر ، وراحت تنزع قرطها وخواتمها وتقدمها للرجل ، كأنما تريد أن توفر عليه مؤونة انتزاعها بنفسه . . . فتناول منها الحلى ، ثم رمقها بنظرة حادة ، فأغمى عليها للتو ! .

وعنـدئذ عاد الرجل إلى مقعده ، وهو أوفى ما يكون هدوءاً ، كأنه لم يأت شيئا ، وأشعل لفافة ، ثم أخذ يفحص الـكنوز التى اقتنصها فى عناية بالغة ، دون أن يلقى الينا بالا أو يبـدى لوجودنا اكتراثا . . وكأنما قنع بنتيجة فحصه ، إذ ابتسم فى رضى وحبور وهو يهز رأسه ويصفر بشفتيه .

أما أنا فلم أكن فى مثل هذا الرضى أو الحبور . . ولست أعنى أنى كنت حزينا لفقد الاثنى عشر ألف فرنك التى سلبت منى بغير حق ! . فتلك خسارة أرتضيها مؤقتا ، إذ لم يخامرنى أدنى شك فى أنها سوف تعود إلى جيبى عما قريب ، هى والأوراق الهامة التى كانت فى حافظتى . . فقد كانت مفكرتى تحوى بيانات بالغة الخطر والأهمية ، من خطط وتفصيلات دقيقة ، ومن عناوين مختلفة ، وأسماء أعوانى ومساعدى ، كما كانت الحافظة تضمن خطابات ذات صفة خطيرة تديننى أشد الادانة ... ولـكنى فى تلك اللحظة كان يشغلنى أمر آخر ذو بال أشد خطرا من ذلك .. وهو ماذا عسى أن يحدث بعد ذلك ؟.

ولم يكن قد فاتنى بطبيعة الحـــال ما ساد محطة سان لازار من الهرج والاضطراب على أثر مرورى بها .. ولما كنت ذاهباً لزيارة أصدقاء لى يعرفوننى باسم غليوم برلات ، ويعلمون مبلغ الشبه بين أرسـين لوبين وبينى ويتخذون ذلك مادة لتندرهم ودعاباتهم ، فلم يعد بوسعى أن أتنكر بعد أن اكتشف وجودى . . ومن جهة أخرى فلا ريب أن بوليس روان قد تلق برقيات التحذير من باريس ، وأخطر بوجودى فى القطار ، ولعل قوميسير البوليس هنـاك ينتظر وصول القطار للمحطة ، مزوداً بعدد وفير من رجاله ، فيفتش العربات تفتيشاً دقيقاً ، ويتحرى أمر من يريبه من المسافرين .

كل هذا كنت أتوقعه ، ولـكنى لم أكترث له فى قليل أو كثير .. فقد كنت واثقاً من أن قوميسير البوليس فى روان لن يكون أوفر ذكاء وأنفذ بصيرة من بوليس باريس . ولن يـكون أصلب مراسا وأقوى شكيمة من صديقى جانيمار . .

وسوف يكون فى وسعى أن أمر دون أن ينتبه لى أحـد .. أليس يكفى أن أبرز فى غير اهتمام تذكرة عضـوية مجلس النواب التى أحملها ، والتى بفضلها أوحيت بالثقة إلى جامع التذاكر بمحطة سان لازار فانحنى أمامى باحترام وهو يفتح الباب ؟!.. ولـكن

كم تغير الحال منذ ذلك الحين ؟ . . فلم أعد حراً الآن .. ومن المحال أن أقوم الآن باحدى حيلى المعهودة . . وسوف يجد مدير البوليس فى إحدى عربات القطار السيد أرسين لوبين ، وقد أرسله إليه القدرمقيداً مكمما ، وديعا كالحمل،عاجزاً كالسلحفاة !.. وليس عليه إلا أن يتسلمه من القطار كما يتسلم أحدكم طرداً مرسلا باسمه من محطة السكة الحديد ، يحوى قفصا من الطيور ، أو سلة من الخضر والفاكهة !..

فما الذى يمكن عمله لتجنب هذه الكارثة الماحقة ؟.. وما يسعنى أن أفعل وهذه القيود تشل حراكى ؟ . .

وها هو القطار ينهب الأرض نهبا فى طريقه إلى روان ، وهى المحطة التاليةمباشرة ولن يقف قط قبلها ..

بيد أنه كانت هناك مسألة أخرى تشغل تفكيرى ولو أنها لا تعنينى مباشرة ، إلا أن حلها يثير فضولى باعتبارى من أهل « المهنة » . . فما الذى كان رفيقنا المسافر ينوى عمله ؟..

ولو أننى كنت بمفردى ، لاستطاع أن يجد وقتا كافيا للنزول فى محطة روان وهو أوفى ما يكون هدوءاً وسكينة . . ولكن السيدة ؟.. فما يكاد باب العربة يفتح حتى تنطلق صارخة مستنجدة ، وتلقى بنفسها وراءه ، على الرغم من هدوئها الحالى وخضوعها الظاهرى لحكم الظروف ...

ومن هنا كانت دهشتى .. فلماذا لم يقيد حراكها ويكممها كما فعل بى ، حتى يتيح لنفسه فرصة النجاة قبل اكتشاف جريمته المزدوجة ؟ . .

وكان لا يزال ينفث دخان لفافته ، وقد تعلقت أنظاره بالمشاهد الخارجية التى كانت تتتابع خلال النافذة خلف غلالة من خيوط المطر الرفيعة .. ولكنه مع ذلك نهض من مجلسه مرة واحدة وتناول دليل سكة الحديد من جوارى وراح يبحث فيه . .

أما السيدة فقد كانت تبذل جهداً بالغا لتظل فى حالة الاغماء التى انتابتها ! . . حتى يطمئن العدو إلى جانبها . . ولكن نوبة من السعال كشفت عن كذب ادعائها واغمائها المزعوم ..

وأما أنا فقد كنت فى أشد حالات الضيق ، وجسمى ينبض بالألم .. ولكنى كنت أفكر .. وأتدبر ..

وأما القطار فقد انطلق يزمجر ويطوى الأرض طيا ، كأنه ثمل بخمر السرعة الرهيبة التى ينطلق بها ..

ومررنا بيون دى لارش .. وواسيل .. وسانت اتيين ..

وفى تلك اللحظة نهض الرجل وخطا خطوتين صوبنا .. فكان جواب السيدة عليهما صرخة مدوية ونوبة جديدة بارعة من الاغماء .. !

ولكن ماذا عسى أن يكون غرضه ؟ لقد فتح النافذة المجاورة لنا ، وكان المطر وقتئذ ينهمر كالسيل ، فبدا عليه الضيق إذ لم يكن يحمل مظلة أو معطفا واقيا من المطر .. وتطلع الى الرف ، فرأى مظلة السيدة .. فأخذها .. ثم أخذ معطفى كذلك ، وارتداه !

وكنا نعبر السين .. فرأيت الرجل يطوى أطراف سراويله ، ويطل من النافذة ، ثم يمد يده فيفتح المزلاج الخارجى..

فأجفلت .. ترى هل يريد المجنون أن يلقى بنفسه فى طريق الأبدية ؟ فان القفز من القطار وهو يسير بهذه السرعة الخارقة ، معناه الموت المحقق ..

واندفع القطار عندئذ فى نفق سانت كاترين .. ففتح الرجل الباب ، ومد قدمه يتحسس بها أفريز العربة ..

وكان الظلام ، والدخان ، وقعقعة العجلات ، كل ذلك يضفى على تلك المحاولة الجنونية جواً من الرهبة والهلع ..

ولكنى فجأة أحسست بالقطار يهدىء من سرعته ، وانبعث صرير الفرامل عالياً مزعجا .. وفى اللحظة التالية كان القطار يبطىء فى سيره حتى غدا يتحسس الطريق فى رفق .. وما من ريب أن هناك عمالا يشتغلون فى إصلاح هذا الموضع من النفق ، مما يستلزم إبطاء القطارات فى السير .. وما من ريب كذلك فى أن الوغد كان يعرف ذلك ولم يكن عليه إلا أن يخطو فوق أفريز العربة ، ثم يسير آمناً مطمئناً .. وقد فعل ذلك حقا ، بعد أن أغلق الباب وأعاد المزلاج الخارجى الى مكانه ..

وما كاد يختفى حتى بدأ ضوء النهار يلوح لأنظارنا ثانية ، إذ خرج القطار من

النفق وراح يجتاز واديا فسيحا قبل أن نجتاز النفق التالى المؤدى الى روان مباشرة .

واستعادت السيدة شعورها للتو . . وكان همها الأول أن تندب حليها الضائعة .

فألقيت عليها نظرة ضارعة فهمت مغزاها وأسرعت ترفع الكمامة التى كادت تخمد أنفاسى .. وأرادت كذلك أن تحل قيودى ولكنى أوقفتها قائلا :

— كلا .. كلا .. فينبغى أن يرى البوليس كل شىء على حالته . . إننى أريد أن تكون لديهم فكرة كاملة عما فعله ذلك الوغد ..

— أترى أن أدق جرس الخطر ؟

— هيهات ..! كان ينبغى أن تفكرى فى ذلك بينما كان يهاجمنى ..

— أكنت تريد أن يفتك بى ؟ آه يا سيدى ! ألم أقل لك إنه كان مسافرا بهذا القطار ..؟ لقد عرفته لأول وهلة من صورته .. وها هو قد سلبنى كل ما أمتلك من حلى

— سوف يقبضون عليه .. فلا تخشى شيئا ..

— يقبضون على أرسين لوبين ؟ محال يا سيدى .. إنك لا تعرفه !

— إن كل شىء يتوقف عليك يا سيدتى ، فأصغى إلى جيدا .. فعندما نصل الى روان يجب أن تقفى فى النافذة صائحة مستنجدة .. وسوف يسرع اليك رجال البوليس وموظفو المحطة . . فاذكرى لهم ما رأيته ، فى كلمات موجزة . . الهجوم الفجائى الذى كنت ضحيته ، ثم فرار أرسين لوبين . . صفيه لهم .. فهو يرتدى قبعة رخوة ويمسك بمظلة — هى مظلتك — ويلبس معطفا رماديا واقيا من المطر .

— هو معطفك ! .

— معطفى ؟. كلا .. بل معطفه هو .. فلم يكن معى شىء من ذلك .

— أحسب أنه لم يكن معه معطف البتة عندما دلف إلى المقصورة .

— لا ريب أنه كان معه .. ما لم يكن أحد من المسافرين قبلنا قد نسى ذلك المعطف فوق الرف .. ومهما يكن من أمر فقد كان يرتديه عند فراره ، وهذا هو المهم . . معطف رمادى واق من المطر ، فتذكرى ذلك جيداً .. آه ! لقد نسيت !. اذكرى اسم زوجك منذ البداية ، فان مركزه سيثير فيهم الاهتمام والحمية .

وكنا وقتئذ ندخل المحطة ، وقد تدلت السيدة من النافذة كما أفهمتها . وعند

استطردت أقول لها فى صوت مرتفع ونبرات آمرة حتى ترسخ فى ذهنها :

ــ اذكرى لهم اسمى أيضاً . . غليوم برلات . . وإذا دعت الضرورة فقولى إنك تعرفيننى . إن ذلك سيوفر كثيراً من الوقت ، بينما يجب أن نسرع فى التحريات الأولية . فأهم شىء هو القبض على أرسين لوبين ، واستعادة حليك وجواهرك منه .. هل فهمت تماما ؟ . غليوم برلات ، أحد أصدقاء زوجك ! .

ــ تماما . . غليوم برلات ! .

وكانت قد بدأت تستغيث وتلوح بذراعيها . . وقبل أن يقف القطار ، كان سيد أنيق الهندام قد قفز فوق أفريز العربة ، يتبعه عدد من الرجال . .

وحلت اللحظة الحاسمة ! .

وكانت السيدة تصيح فى أنفاس مبهورة :

ــ أرسين لوبين !. لقد هاجمنا . . وسلب مجوهراتى جميعاً .. إننى مدام رينو .. وزوجي هو نائب محافظ السجن . . . آه ! . . ها هو أخى ، جورج أنديل . . . مدير بنك روان .

وأثنت تقبل شابا كان يتقدم نحوها وهو يحي قوميسير البوليس ، ثم استطردت منتحبة :

ــ نعم . . أرسين لوبين . . لقد أطبق على عنق هذا السيد بينما كان مستغرقا فى النوم .. مسيو برلات ، أحد أصدقاء زوجى .

ــ ولكن أين أرسين لوبين ؟ .

ــ لقد وثب من القطار فى النفق . . بعد أن اجتزنا السين .

ــ وهل أنت واثقة من أنه هو ؟ .

ــ كل الثقة . . فقد عرفته لأول وهلة . . وفضلا عن ذلك فقد رئى فى محطة سان لازار . . كان يرتدي قبعة رخوة .

ــ كلا .. بل قبعة صلبة كهذه .

وأشار القوميسير إلى قبعتى .. ولكن السيدة قالت فى اصرار :

ــ أؤكد لك أنها قبعة رخوة . . كما يرتدى معطفا واقيا من الدار رمادى اللون .

فغمغم القوميسير :

— أصبت . . فهكذا جاء فى البرقية . . معطف رمادى واق من المطر ذو ياقة من القطيفة السوداء .

فصاحت مدام رينو فى انتصار :

— تماما .. ياقة من القطيفة السوداء .. لقد رأيتها ! .

وعندئذ تنفست الصعداء . . . لقد وجدت فى هذه السيدة صديقة عظيمة . . . وأى صديقة ! .

وفى تلك الاثناء كان رجال البوليس يفكون قيودى . . فعضضت على شفتى فى عنف حتى سالت الدماء منهما . . . ثم انحنيت ، وقد وضعت المنديل فوق فمى ، كما ينبغى أن يفعل رجل قضى مدة طويلة فى وضع مقيد غير مريح ، ويحمل وجهه الآثار الدامية للكمامة التى كم بها فمه .. وما لبثت أن قلت للقوميسير فى صوت ضعيف:

— سيدى .. إنه أرسين لوبين بلا مراء ، وفى وسعك أن تقبض عليه إذا ما أسرعت ، كما أعتقد أننى قد أكون ذا فائدة لكم . .

وكانت العربة قد فصلت من القطار لحاجة البوليس اليها فى أبحاثه ، بينما مضى يتابع طريقه إلى الهافر .. أما نحن فقد مضوا بنا إلى حجرة ناظر المحطة ، وسط جمع من المحتشدين على الرصيف ..

وحتى تلك اللحظة كان التردد لايزال يراودنى . . فينبغى أن أنتحل عذراً للانصراف ثم أبحث عن سيارتى وأمضى بعيداً . . لقد كان من الخطر كل الخطر أن أبقى أو أنتظر فلو أن شيئاً حدث ، أو وردت برقية من باريس ، لقضى على القضاء المبرم ..

نعم .. ولكن ماذا يكون من أمر ذلك الوغد الذى سلبنى ؟ . . لو أننى اكتفيت بالاعتماد على نفسى ، فى بقعة لاأعرفها جيداً ، لما كانت ثمة ذرة من الرجاء فى أن أهتدى اليه

وقلت لنفسى :

— هيا .. دعنا نجازف ونبق .. إنه عمل غير مضمون النجاح ، ولكنها لعبة مسلية طريفة .. ثم ان النتائج تستحق كل هذا العناء .. ! .

فلما سألنا قوميسير البوليس أن نعيد أقوالنا ، هتفت به قائلا :

— ياسيدى القوميسير .. ان أرسين لوبين فى هذه اللحظة قد أحرز قصب السبق علينا .. وان سيارتى تنتظرنى فى فناء المحطة ، فلو شرفتنى بأن تصحبنى فيها فربما استطعنا أن..

فابتسم القوميسير ابتسامة العارف ، وقال :

— إنها فكرة لا بأس بها.. بل انها فكرة صائبة حقاً بحيث إنى قد نفذتها فعلا ..

— أوه ؟..

— نعم فقد أسرع اثنان من ضباطى على دراجتين ، منذ بعض الوقت ..

— ولكن .. إلى أين ؟

— إلى مدخل النفق .. سـوف يجمعان الأدلة ويبحثان عن الآثار اللازمة ، ثم يطاردان أرسين لوبين على ضوئها . .

فما تمالكت أن هززت كتفى فى سخرية وقلت :

— إن ضابطيك لن يجمعا شيئاً من الأدلة ولن يجدا أثراً من الآثار . .

— حقاً ..؟

— لا ريب أن أرسين لوبين قد أعد عدته بحيث لا يراه أحد وهو يغادر النفق .. ولا ريب أيضاً أنه سيتخذ أقرب طريق ، ومن هناك . .

— ومن هناك إلى روان .. حيث نقبض عليه ..

— إنه لن يذهب إلى روان ..

— فى هذه الحالة سوف يظل فى تلك الجهة حيث يكون من المحقق ...

— إنه لن يظل فى تلك الأنحاء ..

— آه ..! إذن أين يمكنه الاختفاء ؟

— إن أرسين لوبين فى هذه اللحظة يحوم حول محطة دارنتال . . وفى السـاعة العاشرة وخمسين دقيقة ، أى بعد اثنتين وعشرين دقيقة من الآن ، سوف يستقل القطار الذى يبارح روان الى اميان ..

— هل تظن ذلك ؟ ولكن من أين لك هذه المعرفة ؟

— هذا أمر سهل بسيط .. فبينما كنا فى عربة القطار ، أخذ أرسين لوبين جدول مواعيد السكة الحديدية الخاص بى وراح يبحث عن شىء معين فيه . . فلماذا ؟ ليرى إن

كانَ هناك خط آخر بالقرب من المكان الذى يزمع النزول فيه .. وهل توجد محطة على هذا الخط ، وأقرب قطار يمر بها .. وقد سبق لى أن فحصت الجـــدول بنفسى وعلمت ما أردت معرفته ..

فقال القوميسير :

— لعمرى إنك على جانب عظيم من براعة الاستنتاج ياسيدى . . ولابد أنك خبير فى هذه الأمور !

وكان اقتناعى بصدق نظريتى قد دفعنى حتى انزلقت إلى هذه الزلة .. فقد أبديت من البراعة أكثر مما ينبغى بحيث راح الرجل يرمقنى فى دهشة بالغة ، وخيل إلى أن لمحة من الشك قد ومضت فى عقله .. ومن الحق أن أقول إن الصور المختلفة التى نثرت نثراً فى شتى الجهات كانت غير متشابهة ، وتمثل «أرسين لوبين» يختلف فى كل منها عنه فى الأخرى ، ويختلف تماما عن الرجل الذى يقف أمامه الآن .. ولذلك لم يكن من المحتمل أن يعرف (الأصل) الحقيقى فى شخصى .. ورغم ذلك فقد كان القوميسير قلقا مضطربا بالغ الحيرة . . .

وساد الصمت لحظة ، تخيل إلى أن عامل الشك قد لعب دوره حتى قطع حديثنـا وسرت فى بدنى رعدة اللهفة والتوجس .. ترى هل يزمع الحظ أن يتخلى عنى الآن ؟ .

واستطعت السيطرة على أعصابى ، فبدأت أضحك قائلا :

— آه !.. أحسب أنه لايشحذ ذهن المرء وحواسه مثل فقده مبلغاً كبيرا من النقود ومفكرة جيب خاصة ، ورغبته فى استعادتهما .. ويبدو لى أنك إذا أعطيتنى اثنين من رجالك ، فربما استطاع ثلاثتنا ...

وعندئذ هتفت مدام رينو :

— أرجوك ياسيدى القوميسير أن توافق على مايقترحه مسيو برلات

وقد كان لتدخل صديقتى الكريمة ماحول مجرى الأمور ورجح كفتى . . فان اسم برلات إذ ينبعث من شفتيها ، وهى زوجة رجل مسئول ذى نفوذ ، قد لصق بى ولم يعد بإمكان يتطرق إلى أحد فى أنه اسمى الحقيقى . . وعندئذ نهض القوميسير وهو يقول :

ـ صدقني يامسيو برلات ، إنني أتمنى لك النجاح من كل قلبي . . فلست أقل منك لهفة إلى القبض على أرسين لوبين . .

وصحبني حتى بلغنا سيارتي ، حيث قدم لي اثنين من رجاله . . أونوريه ماسول وجاستون دليفيه . . فاتخذا مجلسهما في المقعد الخلفي ، بينما توليت القيادة ، وقد جلس سائقي بجواري . .

ولم تمض بضع ثوان حتى خلفنا المحطة وراءنا . . وبذلك نجوت من ذلك المأزق . . وأعترف أنه بينما كنا نجتاز شوارع هذه المدينة النورماندية القديمة ، في سيارتي القوية (فان قوة محركها ٣٥ حصانا) كان يخالجني الكثير من الزهو والخيلاء . فقد كان المحرك يهدر هديرا منتظما كأنه أنغام الموسيقى ، بينما كانت الأشجار تتطاير حولنا يمنة ويسرة . . وما على الآن ، بعد أن استعدت حريتي ونجوت من الخطر الذي كان يتهددني ، إلا أن أنجز تلك المهمة الخاصة بي ، بمعاونة هذين السيدين من ممثلي القانون . . كان أرسين لوبين يطارد أرسين لوبين !

وإني مدين لهذين الرجلين الطيبين ، أونوريه ماسول وجاستون دليفيه ، بالمساعدة الثمينة التي أسدياها لي . . فلولاهما لضللت السبيل وسط هذه الوديان والانفاق التي لم أكن اعرفها . . ولولاهما لتحولت إلى الطريق الخطأ في كثير من المعابر التي مررنا بها ثم . . لولا هذان الصديقان لضل أرسين لوبين طريقه ومضى على غير هدى ، ولاستطاع الآخر الفرار بغنيمته آمنا مطمئنا !

ولكن الأمر لم ينته بعد . . بل هو أبعد من ذلك كثيراً . . فينبغي أولا أن أقتنص صاحبنا ، ثم أستعيد منه الأوراق التي سلبني إياها . . ولكن يجب ألا تقع أنظار هذين الشرطيين على تلك الأوراق أو يلمساها بأيديهما . . كنت أريد أن أفيد من معونتهما ، وأن أعمل في الوقت نفسه مستقلا عنهما . . وما كان ذلك بالأمر اليسير !

وبلغنا دارنتال بعد قيام القطار منها بثلاث دقائق ! ولكني وجدت عزائي في أننا علمنا أن رجلا يرتدي معطفا رماديا واقياً من المطر ، ذا ياقة من المخمل الأسود ، قد ركب في إحدى عربات الدرجة الثانية ، بعد أن ابتاع تذكرة إلى أميان . .

وهكذا ! تحققت نظريتي ، وكان أول ظهوري كبوليس سرى مبشراً بالنجاح . .

وقال دليفيه :

— إن القطار سريع ، ولن يقف بعد ذلك إلا فى مونترليه - بوشى ، بعد تسع عشرة دقيقة من الآن .. فاذا لم نكن هناك قبل أرسين لوبين ، فسيكون فى وسعه أن يذهب حتى اميان ومنها إلى دييب أو باريس ..

— وكم تبعد مونترليه عنا ؟ ..

— أربعة عشر ميلا ونصفا ..

— أربعة عشر ميـــلا ونصفا فى تسع عشرة دقيقة !.. حسنا .. سوف نكون هناك قبله ..

وكان سباقا أشبه بالصراع .. فما وجدت من سيارتى قبل الآن مثل هذه الاستجابة إلى قلق ولهفتى بهذه الحمية !.. وكانت كأنما تتلق رغباتى مباشرة دون وساطة عجلة القيادة أو أجهزة السرعة !.. كانت تشاطرنى اللهفة والرغبة، وتشاركنى العزم والاصرار، وكانت تفهم حنق وسخطى على أرسين لوبين الزائف !.. ذلك الوغد !.. ذلك النذل الخسيس !.. ترى هل أستطيع العثور عليه والاقتصاص منه ؟.. أم تراه يتمكن من الافلات ، مرة أخرى، من أيدى السلطات .. السلطات التى أمثلها وأعمل الآن باسمها؟..

وكان دليفيه لا يفتأ يصيح :

— إلى اليمين !.. إلى اليسار !.. على طول ..

كانت العجلات لا تكاد تمس الأرض .. وراحت أعمدة التلغراف تتطاير من حولنا كأنها طيور أفزعها مرآنا ..

وعندما انعطف بنا الطريق فجأة بعد ذلك ، رأينا سحابة من الدخان .. إنه القطار السريع ..

وظللنا زهاء نصف ميل فى سباق عنيف ، نســير جنباً إلى جنب .. ولكنه كان سباقا غير متكافئ القوى .. فقد تقدمنا حتى سبقنا القطار بعشرين طولا !..

وفى ثلاث ثوان كنا فوق الرصيف ، أمام عربات الدرجة الثانية .. وفتحت الأبواب على سعتها ونزل منها بعض الناس .. ولكن غريمى لم يكن بينهم .. ففتشنا العربات، ولكنا لم نجد أثرا لأرسين لوبين ..

وصحت فى دهشة :

— يا إلهى !.. لا ريب أنه رآنى وعرفنى ونحن نسير بجوار القطار ، فوثب منه !..

وعنـدئذ أيد مفتش القطار فكرتى ، فقال إنه رأى رجلا يتسلق الحاجز على بعد مائتى متر من المحطة .. وما لبث أن أضاف :

— آه !. هاهو !.. انظروا عند المعبر (المزلقان) ..

فاندفعت أعدو نحوه ، يتبعنى رفيقاى . . أو بالأحرى أحدهما فقط . . فقد تبين أن الآخر، وهو ماسول، عداء سريع منحته الطبيعة سرعة خارقة فى العدو..ولم تمض ثوان حتى رأينا المسافة بينه وبين الهارب تضيق وتتناقص .. ورآه الرجل ، فوثب فوق سياج كثيف ، وأسرع نحو طريق منحدر راح يتسلقه فى خفة ، وما لبثنا أن رأينـاه من بعد وهو يدخل غابة صغيرة . .

فلما بلغنا مدخل الغابة ، وجدنا ماسول فى انتظارنا .. فقد رأى من الحكمة ألا يمضى وراء الهارب ، خشية أن يفقد أثرنا . .

فقلت له :

— لقد أصبت جادة الصواب يا صديقى العزيز . . ولا ريب أن غريمنا الآن قد أنهكه هذا العدو الطويل وسوف نناله حتما . .

ورحت أفحص أطراف الغابة ، بينما كنت أمعن الفكر فى الوسيـلة التى تهىء لى القبض على ذلك الوغد بمفردى ، بحيث أستعيد منه ما سلبنى إياه ، دون أن أدع لرجلى الشرطة فرصة الحصول على أوراقى ، وهو ما يتحتم حدوثه إذا ماصاحبانى . .

وبعد لحظة عدت اليهما فقلت :

— سوف تكون مهمتنا غاية فى السهولة .. فأنت يا ماسـول ، اتخذ موقفك إلى اليسار . . وأنت يا دليفيه ، إلى اليمين .. ومن هاتين الجهتين يمكنكما أن تراقبا مؤخر الغابة جيداً ، ولن يستطيع الخروج منها دون أن تراه ، إلا إذا سلك هذا الممر الضيق الأوسط ، حيث أقف فى انتظاره .. أما إذا فضل البقاء ، ولم يخرج من الغابة ، فسوف أمضى خلفه وأرغمه على الخروج من مكمنه ، ومن هذه الناحية أو تلك ، فيقع فريسة سائغة بين يدى أحدكما .. وليس عليكما إلا أن تنتظراه وترقبا خروجه .. آه !.. لقد

نسيت .. سوف أطلق ، فى حالة الخطر ، طلقا ناريا من مسدسى ..

فمضى ماسول ودليفيه ، كل إلى ناحيته ، حتى إذا ما غابا عن الأنظار ، مضيت إلى داخل الغابة ، فى حــذر بالغ ، وحرص شديد ، حتى لا يسمعنى الهارب أو يرانى .. وكانت الغابة تتألف من أدغال كثيفة متداخلة ، تقطعها ممرات ضيقة لا يمكن السير فيها إلا إذا أحنى المرء قامته ، كأنما يجتاز نفقا كثيفاً من أوراق الشجر ..

وكان أحد هـذه الممرات قد انتهى بى إلى رقعة فسيحة بين الأشجار ، حيث كان العشب الرطب يحمل آثار أقدام .. فتتبعتها فى حذر وعناية ، وإذا بها تقودنى إلى سفح أكمة صغيرة شيد فوقها كوخ منخفض طليت جدرانه الخشبية بالجص ..

وقلت لنفسى :

— لا ريب أنه هنا .. ولعمرى لقد اختار مركزاً طيباً للمراقبة ..

ورحت أزحف نحو البناء ، فسمعت حركة خافتة دلتنى على وجوده .. والواقع أنى لمحته من خلال الباب ، وكان ظهره إلى ناحيتى ..

وفى وثبتين كنت قد انقضضت فوقه .. فحاول أن يصوب نحوى المسدس الذى كان فى يده ، ولكننى لم أدع له فرصــة أو وقتا لذلك ، إذ ألقيت به على الأرض ، بحيث انطوى ذراعاه تحته ، بينما جثمت بركبتى فوق صدره .. وانحنيت فوقه أقول له فى همس:

— أصغ إلى أيها الصديق .. إننى أنا أرسين لوبين !.. وعليك أن تعيد لى مفكرتى ونقودى ، وتسلمنى حقيبة السيدة ، فى التو واللحظة !.. ولقاء ذلك سوف أنقذك من قبضة البوليس ، وأدمجك فى سلك عصابتى .. فأيهما تختار ؟.. نعم أم لا ؟..

فغمغم : بل نعم ..

— حسنا . . لقد كانت خطتك هذا الصباح آية فى البراعة . . وسوف نغدو صديقين حميمين ! . .

ثم نهضت من فوق صـدره . . ورأيته يدس يده فى جيبه .. وإذا به يخرج مدية كبيرة ويحاول أن يطعننى بها . .

فتحاشيت الطعنة بإحـدى يدى .. بينما لطمته بالأخرى لطمة عنيفة على ناصيته . . فخر فوق الأرض كالكتلة الصماء . .

ووجدت أوراق ونقودى داخل الحافظة .. كاملة .. ثم دفعنى الفضول إلى اخراج أوراقه ورؤيتها . . فوجدت اسمه على غلاف خطاب مرسل إليه . . وجدت اسم بيير أونفرى !..

فأجفلت دهشة ونفورا . . بيير أونفرى . . مرتكب جريمة شارع لافونتين فى (أوتى) .. بيير أونفرى .. ذلك السفاح الذى ذبح مدام دلبوا وابنتيها !..

وانحنيت فوقه من جديد !.. نعم .. إنه الوجه الذى خيـــل لى أننى سبق لى أن رأيته . . عندما طالعنى أول مرة فى القطار .. إنه ذلك السفاح الذى رأيت صورته فى الصحف أكثر من مرة .. بينما كان رجال البوليس يبحث عنه بحثا مستفيضاً ..

وكان الوقت يمر سريعا .. فوضعت ورقتـــين ماليتين من ذات المائة فرنك . . فى غلاف صغير .. ومعهما بطاقة زيارة كتبت عليها :

« من أرسين لوبين إلى مساعديه المخلصين أونوريه ماسول وجاستون دليفيه . . مع أطيب التمنيات وأصدق الشكر لمعونتهما القيمة » . .

ثم وضعت الغلاف حيث يمكن رؤيته ، فى وسط الكوخ . . ووضعت بجانبه حقيبة مدام رينو اليدوية !. فلماذا لا أعيدها إلى تلك الصديقة الطيبة التى أنقذتنى ؟.

ومع ذلك فانى أعترف بأنى أخـذت منها كل ما وجدته يبعث على الاهتمام . . . ولم أترك فيها سوى مشط من العاج،وإصبع من أحمر الشفاه ، وكيس نقود فارغ ؟ . فمهما قيـل أو صنع فان العمل هو العمل ! . ثم ان زوجها ، فضلا عن ذلك ، يشغل وظيفة ذات سمعة سيئة ! .

وبقى الرجل .. وكان قد بدأ يستعيد صوابه . . ترى ماذا أفعل ؟ . إننى لا شأن لى بانقاذه ، ولا بالقبض عليه .

فجردته من أسـلحته ، ثم أطلقت طلقة نارية من مسدس فى الهواء ، بينما كنت أقول لنفسى :

— إن هذه سوف تجلب الشرطيين .. وينبغى أن يدبر هذا الوغد أموره بنفسه ، فلندع القضاء يجرى مجراه !.

ثم مضيت أعدو فى الممر الذى جئت منه .

وبعد عشرين دقيقة كنت قد وصلت إلى سيارتى من منعطف جانبى لاحظته أثناء مطاردتنا للهارب .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر أبرقت إلى أصدقائى من روان أن حادثا غير متوقع قد اضطرنى إلى تأجيل زيارتى .. ولأكن أكثر صراحة من هذا ، فقد رأيت أننى سوف أضطر إلى تأجيل هذه الزيارة إلى الأبد ، فلا ريب أنهم قد سمعوا عنى الآن ما يدعو إلى أن أحرمهم رؤيتى . . ولعمرى سوف يحزنون لذلك كثيراً ! .

وفى الساعة السادسة عدت إلى باريس بالسيارة . .

وقد علمت من الصحف المسائية أن البوليس قد أمكنه أخيراً أن يلقى القبض على بيير أونفرى . سفاح (أوتى) .

وفى صباح اليوم التالى — ولماذا بربك لا ننتهز فرصة للاعلان البارع ؟!.. — نشرت صحيفة « صوت فرنسا » الفقرة الآتية :

« حدث بالأمس على مقربة من بوشى ، وبعد سلسلة من الحوادث المثيرة ، أن تسبب أرسين لوبين فى القبض على بيير أونفرى سفاح أوتى .. وكان السفاح قد سطا على سيدة تدعى مدام رينو ، وهى زوجة نائب محافظ السجن ، فى القطار بين باريس والهافر . . وقد أعاد أرسين لوبين إلى مدام رينو الحقيبة اليدوية التى تحوى مجوهراتها الثمينة ، كما كافأ فى سخاء الشرطيين اللذين عاوناه فى هذه المهمة السامية ، مهمة القبض على السفاح الذى طالما بحث عنه البوليس على غير طائل ! . »

القسم الثالث

عقد الملكة

كانت الكونتس دى درو — سوبيز ، لا تتحلى « بعقد الملكة » إلا مرتين أو ثلاثا كل عام فى المناسبات الهامة كالحفلة الراقصة التى تقيمها السفارة النمسوية أو حفلة استقبال اللادى بيلنجستون .

ولا تحسبن أن ذلك العقد كان يطلق عليه اسم « عقد الملكة » على سبيل المجاز .. وإنما هو حتماً ذلك العقد الشهير . . العقد التاريخى الذى صنعه بوهمر وباسانج جوهريا الملك ، والذى اعتزم الكردينال دى روهان — سوبيز أن يهديه إلى الملكة

مارى أنطوانيت .. وهو نفسه العقد الذى راحت جان دى فالوا ، كونتس دى لاموت، تلك الأفاقة المعروفة ذات ليلة من شهر فبراير سنة ١٧٨٥ تنزع ماساته النفيسة النادرة ، بمعاونة زوجها وشريكهما ريتو دى فيليت

والواقع أن القسم المعدنى من ذلك العقد الشهير هو الذى كان صحيحا حقيقيا . فقد احتفظ به ريتو دى فيليت بينما ذهب السيد دى لاموت وزوجته الفاتنة يبعثران أدراج الرياح تلك الماسات العظيمة التى انتزعت من مكانها فى وحشية . والتى كان بوهمر قد بذل جهوداً هائلة فى انتقائها واختيارها . .

وقد باع ريتو تلك الرصيعة فيما بعد فى إيطاليا الى جاستون دى درو ـ سوبيز ، ابن أخى الكردينال ووريثه ، والذى أنقذه عمه من كارثة الافلاس التى حاقت بأسرة روهان ـ جيمينيه فى ذلك الحين . وقد ابتاع جاستون العقد ، إكراما لذكرى عمه وعرفاناً بصنيعه ، وشفع ذلك بشراء الماسات القليلة التى بقيت فى حوزة الجوهرى الانجليزى جيفريز من الماسات الأصلية ، وأكملها بأخرى أقل قيمة ، ولكن من نفس الحجم ، وبذلك نجح فى إعادة العقد العظيم الى الهيئة التى خرج بها من يدى بوهمر وباسانج ..

وقد ظل آل درو ـ سوبيز يتوارثون هذه الحلية الأثرية زهاء قرن كامل . . وعلى الرغم من أن ثرواتهم قد تناقصت كثيرا على أثر صروف القدر المختلفة ، إلا أنهم كانوا يفضلون العيش على الكفاف عن أن يتخلوا عن هذه التحفة الملكية الثمينة .. وكان الكونت الحالى ، على الأخص ، يتعلق بها تعلق المرء بمنزل آبائه وأجداده الأقدمين .. ودفعه الحرص الى أن يستأجر خزانة خاصة فى مصرف الكريدى ليونيه ليحفظ فيها العقد .. وكان دائما يحضره بنفسه من الخزانة ، فى عصر اليوم الذى تريد الكونتس أن تتحلى به فيه .. كما كان يعيده بنفسه الى موضعه من الخزانة فى صباح اليوم التالى على الدوام .



وفى تلك الليلة لقيت الكونتس نجاحا باهرا فى قصر كاستيل ، حيث كانت تقيم إزابيلا الثانية ملكة أسبانيا السابقة .. وكانت الحفلة مقامة تكريما للملك كريستيان

الدانماركى ، الذى اتجهت أنظاره الى الكونتس وأبدى تقديراً عظيما لحسنها الرائع
وكانت الماسات متراصة حول جيدها العاجى ، تنبعث من زواياها العديدة آلاف من
الأشعة المتألقة كالشهب ، تحت الأضواء الباهرة التى يحفل بها المكان .. وكان الواضح
أنه ما من سيدة أخرى تستطيع أن تحمل هذه الحلية العجيبة فى مثل اليسر والبهاء
اللذين كانت الكونتس تحمله فيهما ..

وكان انتصاراً مزدوجاً ذلك الذى استمتع به الكونت دى درو . وراح يثنى عليه عندما عادا إلى مسكنهما القديم بضاحية سان جرمان ، وآويا إلى حجرة نومهما .. كان فخوراً بزوجته الباهرة الحسن ، كما كان فخوراً بهذا الكنز الذى أضفى على أسرته جلالا ومجداً خلال أربعة أجيال متعاقبة .. كذلك كانت الكونتس تشعر بزهو وكبرياء لاقتنائها مثل هذا العقد الذى يسيل له لعاب النساء ، ولو أنها كانت تخفى الزهو بطبيعتها المترفعة

ورفعت العقد من فوق كتفيها .. فى حركة لا تخلو من الأسف . . ثم ناولته لزوجها الذى راح يرمقه فى اعجاب بالغ كأنما يراه لأول مرة .. وبعد أن وضعه بالعلبة الخاصة به وهى من الجلد الأحمر الفاخر ، وقد وشيت بشعار الكردينال دى روهان ، مضى إلى مخدع صغير ملاصق لحجرة النوم ، كان فى الأصل جزءاً من الحجرة ثم فصل عنها بجدار رقيق يتوسطه باب هو المنفذ الوحيد اليه ، ويقع عند الطرف الأدنى للفراش .. وهناك أخفى العلبة ، كما جرت عادته ، بين أكداس الثياب والصناديق فوق أحد الأرفف العل
وما لبث أن عاد وأغلق الباب خلفه ثم بدأ يخلع ثيابه ويتأهب للنوم .

واستيقظ فى الساعة التاسعة صباحاً .. معتزماً الذهاب إلى المصرف قبل موعد الغداء فارتدى ثيابه .. ورشف قدحاً من القهوة .. ثم نزل إلى حظائر الجياد ليلقى على أتباعه أوامره اليومية .. وكان أحد جياده يبدو فى حالة غير مرضية . . فأمر السائس أن يروح ويغدو به فى الفناء أمامه .. وبعد ذلك عاد إلى زوجته . . ولم تكن قد غادرت الحجرة بعد .. وقد أخذت وصيفتها تمشط لها شعرها .. فسألته :

— هل عزمت على الخروج .. ؟

— نعم .. لأعيده ثانية ..

— آه ! .. بلاريب .. نعم .. ذلك أوفر أمناً ..

فذلف الكونت إلى المخدع المجاور . . وما لبث بعد لحظة أن سألها دون أن ينم صوته عن دهشة أو جزع :

— هل أخذته يا عزيزتى .. ؟

فأجابته الكونتس :

— ماذا تعنى ؟ كلا .. إننى لم آخذ شيئا ..

— ولكنك نقلته من مكانه بلا ريب ؟

— كلا البته .. بل اننى لم أفتح هذا الباب قط!...

فظهر الكونت من الباب ، وقد بدت عليه علائم الحيرة والذهول .. وراح يغمغم فى كلمات لاتكاد تفهم :

— لم تأخذيه !.. لم تنقليه !.. ولكن إذن ؟

فهرعت نحوه حيث انهمكا فى بحث طويل ، وهما يلقيان أكداس الثياب والصناديق من فوق الأرفف على الأرض بينما ظل الكونت يردد فى هلع :

— لاجدوى من ذلك كله .. ومانفعله الآن لافائدة منه .. فقد وضعته بنفسى هنا .. فى هذا الرف

— لعلك نسيت ؟..

— كلا .. كلا .. لقد كان هنا .. على هذا الرف .. لافى اى مكان آخر .. وكان الضوء فى المخدع ضئيلا خافتاً .

فأشعلا إحدى الشموع وراحا يبحثان من جديد . . لم يتركا شيئا فى مكانه . . ولم يدعا قطعة من الثياب لم يفتحاها ويبحثا بداخلها !.. فلما لم يبق فى المخدع شىء يمكن البحث فيه اضطرا إلى قبول الأمر الواقع ، والاقتناع فى يأس مرير بأن العقد الشهير . . عقد الملكة قد ضاع . . .

ولم تضع الكونتس وقتاً فى النحيب والبكاء ، إذ كانت امرأة صلبة العزم ، بل أرسلت فى طلب قوميسير البوليس ، مسيو فالورب ، الذى سبق لهما فى إحدى المناسبات أن جربا حكمته وبعد نظره .. ولم تمض برهة حتى كانا يقصان عليه تفاصيل الأمر . . وحتى بدأ يسأل :

— هل أنت واثق ياسيدى الكونت من أن أحدا لم يمكنه المرور بحجرتك أثناء الليل ؟..

— كل الثقة .. فانى عادة أستيقظ لأدنى حركة .. وفضلا عن ذلك فقد كان باب الحجرة موصدا من الداخل .. وقد رفعت المزلاج بنفسى هذا الصباح عندما قرعت زوجتى الجرس تدعو الوصيفة ..

— ألا يوجد منفذ آخر للدخول إلى المخدع ؟

— كلا البته ..

— ألا توجد به نافذة ؟

— بلى .. ولكنها لايمكن أن تفتح .

— بودى أن ألقى نظرة عليها . . .

فأضيئت الشموع من جديد ، وما لبث مسيو فالورب أن لاحظ وجود صندوق كبير خلف النافذة لايحول دون فتحها إلا جزئيا .. فضلا عن أنه غير ملاصق لها ...

فقال الكونت :

— ولكنه من القرب بحيث لايمكن فتح النافذة تماما إلا بعد إزاحته .. وفى هذه الحالة لابد أن ينبعث منه صرير عال شديد . .

— إلى أين تؤدى هذه النافذة ؟

— إنها تطل على فناء صغير داخلى . .

— وهل يوجد طابق آخر فوق هذا ؟

— نعم ، بل اثنان .. ولكن الفناء مغطى عند مستوى طابق الخدم بشبكة من الحديد السميك وهذا مايحجب الضوء عنه . .

وفضلا عن ذلك فقد لوحظ بعد إزاحة الصندوق بعيدا ، أن النافذة كانت موصدة من الداخل مما يجعل من المستحيل دخول أحد إلى المخدع من الخارج ..

فقال الكونت :

— إلا إذا كان قد خرج من حجرتنا ..

— وفى تلك الحالة ما كنت لتجد الباب موصداً بالمزلاج هذا الصباح . .

وأخلد القومسير إلى التفكير لحظة ، ثم تحول إلى الكونتس قائلا :

— هل كان الخدم يعرفون أنك ستتحلين بالعقد فى الليلة الماضية يا سيدتى ؟..

— بالتأكيد .. فما كنت لأدع ذلك سراً .. ولكن أحداً لم يكن يعرف أننا نضعه فى خزانة الثياب بالمخدع ..

— ألم يكن أحد يعرف ذلك قط ؟

— كلا .. ما لم تكن ..

وإذ قطعت عبارتها فجأة ، قال القومسير :

— إنى أرجوك يا سيدتى أن تدلى بكل ما تعرفينه على وجه الدقة .. فهذه نقطة بالغة الأهمية ..

فتحولت الكونتس نحو زوجها قائلة :

— لقد كنت أفكر فى هنرييت ..

— هنرييت ؟. إنها لا تعلم عن هذا الأمر أكثر مما يعلمه الآخرون .

— هل أنت واثق من ذلك ؟.

وعندئذ قال مسيو فالورب :

— من هذه السيدة ؟.

— إنها إحدى زميلاتى فى الدراسة ، وقد اختلفت مع عائلتها فهجرتها وتزوجت عاملا .. فلما توفى زوجها ، أتيت بها إلى هنا مع ابنها الصغير ، وأعددت لها حجرتين فى المنزل ..

ثم أضافت فى شىء من الارتباك :

— وهى تؤدى لى بعض خدمات طفيفة .. فانها ماهرة فى الحياكة .

— وفى أى طابق تقع حجراتها ؟.

— فى هذا الطابق نفسه .. غير بعيد عن هنا .. أعنى فى نهاية الممر .. وإنى أذكر الآن أن نافذة مطبخها ..

— تطل على هذا الفناء الصغير نفسه .. أليس كذلك ؟.

— بلى .. إنها أمام نافذة المخدع مباشرة .

وتلا هذه الاجابة فترة من الصمت العميق ، ثم ما لبث مسيو فالورب أن أعرب عن رغبته فى زيارة حجرات هنريت .

ووجدوا الأرملة منهمكة فى الحياكة ، وقد جلس ابنها راؤول ، وهو طفل فى السادسة أو السابعة من العمر ، يقرأ بجوارها .. وقد دهش القوميسير قليلا إذ رأى هذا السكن الحقير الذى تبدو فيه مظاهر العوز والفاقة ، ويتألف من حجرة واحدة لا موقد ولا مدفأة بها ، يتصل بها ما يشبه مخدعا صغيرا تستخدمه الأرملة كمطبخ لها .

وبدأ القوميسير يستجوبها ، فبدا عليها الذهول والدهشة لدى سماعها بالسرقة .. فقد قامت بنفسها فى الليلة الماضية بمساعدة الكونتس على ارتداء ثيابها ، وهى التى ثبتت العقد حول عنقها .. وأضافت هاتفة :

— يا إلهي !. من كان يفكر فى أن ذلك سوف يحدث ؟ .

فسألها القوميسير :

— أليست لديك أقل فكرة أو خاطر ؟. من المحتمل ، كما تعلمين أن اللص قد مر خلال حجرتك ؟.

فضحكت الأرملة بملء فيها ، كأنها لا تتصور البتة أن أقل ريبة قد تتجه اليها .. وقالت :

— لماذا ؟. إننى لم أغادر حجرتى قط .. والكل يعرف أننى لا أخرج مطلقا .. وفضلا عن ذلك .. انظر ..

ثم فتحت نافذة المطبخ ، واستطردت :

— انها تبعد عن الواجهة المقابلة بثلاث ياردات على الأقل .

— ومن أنبأك أننا كنا نفكر فى احتمال وقوع السرقة من هذا الطريق ؟ .

— لماذا ؟. ألم يكن العقد فى المخدع .. فى خزانة الثياب ؟ .

— وكيف عرفت ذلك ؟ .

— إننى دائما كنت أعرف أنهم يضعونه بها أثناء الليل .. وقد اعتادوا أن يتحدثوا عن ذلك أمامى .

وكان وجهها ينم على أنها لا تزال فى مقتبل العمر ، وإن كان الهم والحزن

تدرسها فوقه خطوطا لا تمحى . . تكسوه الطيبة البالغة . . وتبدو فيه سكينة النفس والاستسلام لحكم المقادير . . ومع ذلك لم يلبث .. فى فترة الصمت الثقيل التى سادت الجميع على أثر هـذا القول . . أن ارتسمت عليه علائم الفزع واللهفة .. كأن خطراً جسيما يهدد صاحبته .. وفى حركة غريزية مدت هنرييت يدها فجذبت ابنها إلى صدرها وعندئذ أمسك بيدها وراح يقبلها فى شغف وحب ..

فلما انصرفوا من حجرتها وخلوا إلى أنفسهم..قال الكونت دى درو للقوميسير :

— أرجو ألا يكون الشك قد تطرق إليك من ناحيتها ؟.. فأنا الضمين لها .. وهى الأمانة مجسمة ..

فأجاب مسيو فالورب :

— آه ! . . اننى أوافقك تماما . . وكل مافى الأمر أننى فكرت فى احتمال مرور لص بحجرتها دون أن تشعر .. ولكنى أرى الآن أنه ينبغى أن نتخلى عن هذه الفكرة .. ولو أن ذلك لن يساعدنا البتة على حل اللغز الذى يواجهنا ..

ولم يمض القوميسير فى تحقيقه إلى أبعد من هذا الحد .. فقد تولاه قاضى التحقيق وأتمه فى خلال الأيام القلائل التى تلت ذلك الحادث .. فاستجوب الخدم جميعاً .. واختبر الطريقة التى تفتح وتغلق بها نافذة المخدع .. وفتش الفناء الصغير الداخلى من أعلاه إلى أسفله .. ولكن ذلك كله كان بلا ثمرة أو نتيجة .. كان المزلاج سليما لم يمس . . كما كان من المستحيل ان تفتح النافذة أو تغلق من الخارج ..

وكانت التحريات تستهدف هنرييت على الأخص .. فانه على الرغم من كل شىء . . كان التحقيق دائما ينتهى إلى ناحيتها .. وقد بحثت حياتها بحثا دقيقاً .. فتأكد المحقق أنها خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة لم تبرح المنزل إلا أربع مرات .. وكان من السهل استقصاء حركاتها فى هذه المرات الأربع .. والواقع أن هنرييت كانت تخدم مدام دى درو كوصيفة وحائكة ثياب معا .. وكانت سيدتها تعاملها فى قسوة وصرامة شهد بها جميع الخدم وكانوا يتحدثون عنها فى خلوتهم ..

وفى نهاية الأسبوع الأول كان قاضى التحقيق قد انتهى الى الرأى الذى انتهى إليه مسيو فالورب . قوميسير البوليس .. وكان يقول :

— وحتى إذا فرضنا أننا قد عرفنا الفاعل — ونحن لا نعرفه — فما من سبيل إلى أن نحدس الوسيلة التى ارتكبت بها السرقة .. وكلما قلبنا الأمر على وجوهه المختلفة ارتطمنا بعقبتين قويتين .. النافذة الموصدة والباب الموصد . بل إن هناك لغزين لا لغزاً واحداً فقط .. فكيف استطاع السارق الدخول ؟.. وأكثر من ذلك كيف استطاع أن يخرج ويترك خلفه نافذة وبابا موصدين من الداخل ؟

وبعد أربعة شهور من التحقيق الدقيق .. كان اعتقاد قاضى التحقيق الخاص هو أن الكونت والكونتس دى درو قد دفعتهما مطالب الحياة وحاجتهما المعروفة إلى المال إلى بيع العقد وادعاء سرقته .. وعلى ذلك حفظ القضية .. ونحاها عن فكره إلى الأبد ..



وقد أصابت سرقة العقد الثمين الكونت والكونتيس دى درور سوبيز بضربة فى الصميم لم يفيقا منها إلا بعد زمن طويل .. فانهما بعد ان فقدا (الضمان) القوى الذى كان يعزز مركزهما المالى . . أصبحا يواجهان دائنين أقل اصطباراً .. ومرابين أقل رغبة فى إقراضهما .. واضطرهما الحال إلى اتخاذ اجراءات سريعة لبيع ممتلكاتهما أو رهنها .. وبالاجمال كانا ينحدران نحو الدمار الشامل لولم تسعفهما العناية بأرثين كبيرين من بعض أقاربهما الأباعد .. آلا اليهما فى الوقت المناسب لانقاذهما

كذلك كانا قد طعنا فى الصميم من كبريائهما .. بعد أن فقدا الدعامة التى يستند اليها نبلهما وتراثهما المجيد .. ومن الغريب أن الكونتس راحت تصب جام حقدها وغضبها على رأس « زميلتها فى الدراسة » . . وكانت تحمل لها ضغينة رهيبة . ولا تفتأ تتهمها صراحة وعلانية .. فنفيت هنرييت بادىء ذى بدء إلى جناح الخدم . ولكن ذلك لم يكن كافيا فى نظر الكونتس . فلم يمض قليل حتى أمرت بمغادرة المنزل نهائيا . وأعطيت مهلة يوم واحد للرحيل ..

وبعد ذلك مضت حياة الكونت والكونتس دى درو هادئة لايتخللها شىء من الأحداث .. وكانا يقومان برحلات طويلة إلى الخارج ثم يعودان إلى منزلهما المعهود .. ولم يبق سوى واقعة واحدة ينبغى أن نشير اليها ضمن ما يتصل بهذا العهد من وقائع

بعد شهور قليلة من رحيل هنريت تلقت الكونتس منها خطاباً ملأها بالدهشة وزادها حنقاً على حنق .. وكان نصه :

« سيدتى

لست أدرى بأى لسان أشكرك .. فلاريب أنك أنت التى تفضلت بارسال تلك المنحة لاريب أنك أنت . . فان أحدا غيرك لا يعرف شيئا عن اعتزالى العالم واعتكافى فى هذه القرية الصغيرة .. أما إذا كنت مخطئة فأرجو أن تغفرى لى جرأتى بالكتابة اليك . . وأن تقبلى منى أبلغ آيات الشكر وعرفان الجميل لأياديك البيضاء وأفضالك السابقة »

ماذا تعنى هذه المرأة بحق السماء ؟ . . ان أفضال الكونتس الحاضرة والسابقة على هنريت ليست إلا سلسلة متصلة الحلقات من الظلم والاضطهاد . . فما الذى ترمى اليه بهذا الشكر الحار . . ؟

وسرعان ما دعيت هنريت لتوضح ما تعنيه .. فأجابت بأنها تلقت عن طريق البريد خطابا عاديا داخله ورقتان من ذات الألف فرنك .. وقدمت غلاف ذلك الخطاب فتبين أنه صادر من باريس .. ولا يحمل سوى عنوانها .. فى حروف رديئة تنم على أن كاتبها قد عنى بتغيير خطه ...

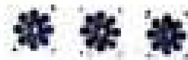
فمن أين أتت هذه الفرنكات الألفان ؟ .. ومن الذى أرسلهما ؟ . ولماذا أرسلهما؟ وقد قام البوليس يتحرى هذا الأمر ولكنه لم يجد أثراً واحداً يمكن الاستضاءة به وسط هذه الظلمات المتكاثفة . .

وتكرر الحادث بعد اثنى عشر شهرا .. ثم مرة ثالثة .. ورابعة .. وأصبح عادة تجرى كل عام لمدة ستة أعوام .. مع فارق واحد .. هو أنه فى العامين الخامس والسادس تضاعف المبلغ المرسل .. مما ساعد هنريت على العلاج من المرض الطويل الذى حل بها فجأة .. بل كان هناك فارق آخر . . فان السلطات البريدية وضعت يدها على الخطاب الرابع بحجة أنه لم يرسل بطريق الموصى عليه مع احتوائه على أوراق مالية ، ولم تسلمه لهنريت إلا بعد أن تقاضت منها جعلا معيناً .. ومن ثم أرسل الخطابان الأخيران بطريق الموصى عليه . . أحدهما من سان جرمان ، والآخر من سورين .. وقد ذكر المرسل أولا اسم

أنكوتى ، ثم اسم بيشار . . ولكن البحث فى العنوانين اللذين أدلى بهما على التوالى دل على أنهما غير صحيحين ! .

وفى نهاية الأعوام الستة ماتت هنريت .

وظل اللغز غامضا مستغلقا تحار فى تفسيره الأفهام .



كل هذه الوقائع التى سردتها يعرفها الجميع ويذكرونها . فقد كانت هذه القضية واحدة من تلك القضايا التى ترج الرأى العام رجا . . وكان من العجيب أن ذلك العقد الذى أثار فرنسا كلها فى أواخر القرن الثامن عشر ، قد عاد فجدد الاهتمام وأثار الأفكار بعد أكثر من مائة عام .

ولكن ما أعتزم سرده الآن لا يعرفه أحد قط . . . اللهم إلا من يخصهم الأمر ، وأفراد قلائل طلب اليهم الكونت فى الحاح أن يكتموا الأمر فى أطواء صدورهم . . . ولما كان من المحتمل أن يحنث هؤلاء السادة فى وعدهم عاجلا أو آجلا ، فلست أرى غضاضة فى أن أسبقهم إلى كشف القناع عن هذا اللغز المستعصى . وهكذا سيجد القراء مع حل ذلك اللغز تفسيراً للفقرة التى ظهرت فى الصحف منذ يومين . . وهى فقرة غريبة غير مفهومة ، أضافت طبقات جديدة من الكثافة إلى الظلام الحالك الذى كان يكتنف القضية من بادىء الأمر .

فلنعد خمسة أيام إلى الوراء .

فقد اجتمع حول مائدة الكونت دى درو ـ سوبيز لفيف من الأصدقاء الذين دعاهم لتناول الغداء ، ومعهم ابنتا أخ الكونت وابن عمه . . وكان الرجال الحاضرون هم الرئيس دسافيـــل ، والنائب بوكاس ، والشيفالييه فلوريانى الايطالى الذى التقى به الكونت فى صقلية . والجنرال المركيز دى روزيير . وهو زميله القديم فى النادى .

وكان ذلك بعد ستة عشر عاما من اختفاء العقد .. أى بعد عشرة أعوام من وفاة هنريت المنكودة

وتناولت السيدات القهوة بعد الغداء فى حجرة الاستقبال ، بعد أن صرحن للرجال بالتدخين على شرط أن يبقوا معهن .. وبدأت إحدى الفتيات بالترفيه عنهم بقراءة طوالعهم

فى ورق اللعب .. ومالبث الحديث أن امتد بعد ذلك إلى موضوع القضـــايا والجرائم الشهيرة .. وانتهز المركيز دى روزيير الفرصة لاغاظة الكونت ، فأثار موضوع سرقة العقد ، وهو الموضوع الذى يعقته مسيو دى درو – سوبيز ، ولا يحب أن يسمع عنه قط

وأدلى كل من الحاضرين بدلوه ..وعرض كل منهم رأيه .. وعلل كل منهم الحادث على طريقته . . ولكن تفسيراتهم كانت جميعاً متعارضة بطبيعة الحال وكلها غير مقبولة ولا مستساغة ...

وأخيراً قالت الكونتس تسأل الشيفاليه فلورياني :

— وما هو رأيك أنت ياسيدى ؟

— آه !.. لا رأى لى فى هذا الحادث ياسيدتى !

فتعالت صيحات الاحتجاج والاعتراض من أنحاء الحجرة..ولاسيما أن الشيفاليه كان منذ قليل يصف لهم فى براعة منقطعة النظير سلسلة من المغامرات التى اشترك فيها مع أبيه وهو قاض فى بالرمو ، والتى أبدى فيها ماينم على بعد نظره وصائب حكمه فى مثل هذه الشئون ..

وأخيراً قال :

— إننى أعترف بأننى فى بعض الأحيان قد كتب لى النجاح حينما أخفق الأخصائيون وجهابذة رجال الشرطة . . ولكنى أبعد ما أكون من أن أعد نفسى كشرلوك هولمز .. وزيادة على ذلك فانى لا أعرف وقائع هذه القضية تماما ..

فتحولت الأنظار جميعها إلى رب الدار الذى اضطر مكرها إلى إعادة سرد الوقائع من جديد ...

وأصغى الشيفاليه فى انتباه ،ثم فكر لحظة ، وطرح على صديقه بضعة أسئلة موجزة، وأخيرا غمغم قائلا :

— هذا عجيب .. أو هكذا يبدو لأول وهلة ..! ولكن الأمر لا يبدو فى نظرى مستعصيا على الحل ..!

فهز الكونت كتفيه فى استخفاف . . ولكن الآخرين راحوا يحيطون بالشيفاليه ويستحثونه على الكلام .. فتابع حديثه فى نبرات رصينة :

— إن القاعدة العامة فى مثل هذه الأبحاث هى أننا إذا أردنا أن نكتشف الفاعل فى سرقة أو أية جريمة أخرى ، فينبغى أن نحدد أولا كيف ارتكبت هذه السرقة أو الجريمة .. أو على الأقل كيف كان من المحتمل أن ترتكب .. ولست أجد أيسر من هذا التحديد فى قضيتنا هـذه ، إذ لا نواجه عدداً من الاحتمالات المختلفة ، وإنما نجد أنفسنا أمام حقيقة واحدة ، وإن كانت عسيرة الفهم .. فقد استطاع الفاعل أن يدخل من أحد طريقين لا ثالث لهما : باب حجرة النوم ، أو نافذة المخدع الصغير .. ولما كان الباب المدعم برتاج قوى لا يمكن فتحه من الخارج ، فلا بد أن يكون الفاعل قد دخل من النافذة ..

فقال مسيو دى درو مزهوا :

— لقد كانت مغلقة .. ووجدت فى الصباح التالى مغلقة ..!

ولكن فلورياني لم يلق بالا الى هذه المقاطعة ، فاستطرد يقول :

— ولكى يفعل ذلك لم يكن عليه إلا أن يمد جسرا من نوع ما .. أعنى سلما أو لوحا من الخشب ، بين الشرفة التى فى المطبخ وحافة نافذة المخدع .. وما إن رأى العلبة التى كان العقد بداخلها ، توضع فى مكانها المعهود . . . .

وعندئذ لم يستطع الكونت صبراً ، فصاح فى صبر نافد :

— ولكنى أقول لك إن النافذة كانت موصدة من الداخل ..!

وفى هذه المرة اضطر الشيفاليه الى أن يجيبه .. ولقد فعل ذلك وهو أوفى ما يكون سكينة وهدوءا ، كرجل يأبى أن يفحم بمثل هذا الاعتراض التافه ، قال :

— لست أشك البتة فى أنها كانت موصدة .. ولكن ألا يوجد بأعلاها مصراع زجاجى ذو مفصلات يمتد عرضا ؟

— وكيف عرفت ذلك ؟

— أولا لأنها تكاد تكون قاعدة عامة فى منازل ذلك العهد .. وثانيا لأنه يجب أن يكون هناك ذلك المصراع وإلا كان من المستحيل أن تقع هذه السرقة .

— الواقع أن ذلك المصراع موجود حقا .. ولكنه كان موصداً كالنافذة نفسها . بل إننا لم نعن بفحصه ..

— لقد كان ذلك خطأ جسيما .. فلو عنيتم بفحصه لوجدتموه مفتوحا .

— ولكن كيف ؟. .

— أحسب أنه ، كغيره من هذه المصاريع ، يفتح بواسطة لسان من الحديد المعقوف في أدناه حلقة من الحديد ؟ .

— نعم ..

— وهل تتدلى هذه الحلقة بين النافذة وبين الصندوق الذى خلفها ؟.

— نعم .. ولكنى لا أفهم ..

— تماما .. لقد كان شيئا من هذا القبيل .. فمن خلال شق أو فجوة صغيرة فى للصراع ، دس الفاعل سيخاً من الحديد معقوف الطرف كالخطاف ، حتى تعلق بالحلقة ثم ضغط عليه إلى الأسفل ففتح المصراع .

— تماما .. هذا واضح كل الوضوح .. وانك لتجزم به فى هذه السهولة الغريبة . .

ثم أردف وهو يهدر فى انفعال :

— ولكنك فقط نسيت شيئا واحدا يا سيدى العزيز .. ذلك أنه لا يوجد فى المصراع أثر لشق أو فجوة !.

— آه .. بل يوجد حتما .

— وكيف يمكنك أن تؤكد ذلك ؟. لو كان قولك صحيحا لرأيناه . .

— كى يرى أى نسان شيئا ينبغى أن ينظر اليه .. ولكنكم لم تنظروا إلى المصراع ولم تعنوا بفحصه كما قلت .. وهذا الشق موجود حتما .. فمن المستحيل ماديا ألا يكون موجودا !. وأغلب ظنى أنه على طول المصراع ، بين الزجاج والاطار الخشبي . . وهو عمودى طبعا .

فنهض الكونت وقد استبد به انفعال عظيم ، وتقدم خطوتين أو ثلاثا فى توفز وعصبية ، ثم مضى نحو فلوريانى قائلا :

— إن شيئا لم يتغير منذ ذلك اليوم .. ولم يضع أحد قدمه فى المخدع .

— فى هذه الحالة يا سيدى بوسعك أن تتحقق بنفسك من أن التفسير الذى أدليت به يتفق مع الواقع .

— إنه لا يتفق فى شىء مع الحقائق التى تأكد البوليس منها .. وأنت لم تر شيئا ولا تعرف شيئا ، ومع ذلك تعترض على ما رأيناه وعرفناه !.

فلم يبد على فلوريانى أنه لاحظ هياج الكونت وحنقه ، وإنما ابتسم قائلا :

— حسنا يا سيدى .. إننى أجتهد فى تخيل الأشياء على حقيقتها . هذا كل شىء .. فاذا كنت مخطئا فما عليك إلا أن تثبت خطئى !.

— وهذا ما سأفعله .. فى هذه اللحظة بالذات !. وإنى أعترف بأن اندفاعك إلى تأكيد هذه ..

وكف مسيو دى درو عن إتمام عبارته .. وغمغم بكلمات غير مفهومة ، ثم تحول نحو الباب وغادر الحجرة

ولم ينبس أحد من الحاضرين بكلمة واحدة .. كانوا ينتظرون فى لهفة وترقب ، كأنما هم مقتنعون بأن ضوءا من الحقيقة سوف ينبثق أمام أعينهم .. وكان الصمت الذى خيم فوقهم صمتا ثقيلا عميقا ، لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان يتسم بطابع من الحزن والأسى.

وأخيرا بدا الكونت فى باب الحجرة ، شديد الامتقاع ، وهو يهتز من فرط الانفعال ، وكان يخاطب أصدقاءه فى صوت متهدج قائلا :

— أرجو المعذرة ، فان أقوال مسيو فلوريانى قد أذهلتنى وأخرجتنى عن الصواب ، وما كان يخطر ببالى قط أن . . .

فقاطعته زوجته فى لهفة شديدة :

— ماذا حدث ؟ تكلم .. قل لنا ماذا وجدت ؟

فتمتم متلعثما :

— نعم .. إن الشق موجود حقا . . فى نفس الموضع الذى حدده . . بين الزجاج والاطار الخشبى ..

واندفع فجأة نحو الشيفاليه ، وأمسك بذراعه فى عنف وهو يقول :

— والآن يا سيدى .. أتم حديثك .. إننى أعترف بأنك كنت على صواب حتى الآن ، ولكن .. ليس هذا كل شىء .. خبرنى ماذا حدث بعد ذلك تبعا لنظريتك ؟

فجذب فلوريانى ذراعه برفق من قبضة الكونت ، وأخلد الى الصمت لحظة ، ثم قال :

— حسنا .. تبعاً لرأيى ، على حد قولك ، فان الفاعل ، أيا كان ، وقد علم بأن مدام دى درو سوف تتحلى بالعقد فى تلك الحفلة ، قد وضع ذلك الجسر أثناء غيابكما عن المنزل .. وكان يراقبكما من خلال النافذة، فشاهدك تخفى الجواهر بين الثياب . وما كدت تغادر المخدع وتغلق بابه حتى دس سلكا حديديا فى هذا الشق وجذب به الحلقة وبذلك استطاع فتح المصراع العلوى ..

— حسنا .. حسنا .. ولكن المسافة كبيرة بحيث لا يستطيع الوصول الى مزلاج النافذة ذاتها من خلال المصراع مهما كان طول ذراعه ..

— إذا لم يكن قد استطاع فتح النافذة نفسها ، فلا ريب أنه دخل من خلال المصراع

— محال ..! فما من رجل يستطيع المرور من هذه الفتحة الضيقة مهما كان نحيلا

— إنه لم يكن رجلا إذن ..!

— ماذا تعنى بحق الشيطان ؟

— أعنى ما أقول .. إذا كانت الفتحة من الضيق بحيث لا تسمح بمرور رجل ، فلا ريب أنه كان غلاما ..!

— كان غلاما ؟!

— ألم تقل لى إن صديقتكم هنرييت كان لها ابن ؟

— تماما .. ابن يدعى راؤول ..

— من المرجح إذن أن يكون راؤول هو الذى ارتكب السرقة ..

— وما دليلك على هذا ؟

— حسنا .. إن الأدلة لا تعوزنا .. فمثلا ...

وسكت فلوريانى برهة ظل خلالها واجما مفكرا ، ثم استطرد قائلا :

— فمثلا .. من غير المعقول أن يستطيع الغلام إحضار هذا الجسر من الخارج ، ثم يخرج به ثانية دون أن يراه أحد .. ولا بد أنه استخدم شيئا كان فى متناول يده .. ألم يكن فى الحجرة الصغيرة التى كانت هنرييت تستعملها كمطبخ بعض الأرفف الخشبية المثبتة فى الجدار لتضع عليها أوانيها وأوعيتها ؟

— أذكر أنه كان يوجد بها رفان من هذا النوع ..

— ينبغى إذن أن نعرف هل كان هذان الرفان مثبتين فى الدعائم الخشبيـة التى تحملهما .. فاذا لم يكن الأمر كذلك ، فلا ريب أن الغلام قد نزع مساميرهما وربطهما معا .. وربما عثرنا أيضا على خطاف الموقد أو رافعة الصحاف التى يحتمل أن يكون الغـلام قد استخدمها فى فتح المصراع الزجاجى ..

فمضى الكونت خارجا دون أن ينطق بكلمة .. وفى هذه المرة لم يشعر الحاضرون باللهفة والترقب مثلما شعروا فى المرة السابقة .. كانوا يعلمون حق العلم أن فلوريانى سوف يصيب كبد الحقيقة كما فعل من قبل .. فقد كان يشع من هذا الرجل قبس من الحقيقة الثابتـة ، بحيث كانوا لا يصغون اليه كشخص يدلى باستنتاجات منطقيـة فحسب ، وإنما يصف حقائق صحيحة كان من السهل التحقق منها كلما تقـدم فى الوصف .. وهكذا لم تخامر أحدا الدهشة عندما عاد الكونت قائلا :

— نعم .. إنه الغلام ! .. لا شك فى ذلك البتة . . فكل شىء يؤكده ويثبته !..

— هل رأيت الرفين .. وخطاف الموقد ؟..

— لقد فعلت . . كانت المسامير منزوعة من الألواح الخشبية . . أما الخطاف فلا يزال هناك ، فى ركن الحجرة !..

فصاحت مدام دى درو :

— هل تقول إنه الغـلام ؟ . . لا ريب أنك تعنى أمه .. إن هنرييت هى المجرمة الوحيدة .. ولابد أنها أرغمت طفلها على ..

فقال الشيفاليه فلوريانى :

— كلا .. إن الأم لا شأن لها بالأمر ولا صلة ..

— هراء . . لقد كانا يقيمان فى حجرة واحدة . . ولا يمكن أن يفعل الغلام شيئا دون أن تراه هنرييت . .

— لقد كانا فى حجرة واحدة . . ولكن كل شىء حدث فى المطبخ المجاور ، أثناء الليل .. بينما كانت هنرييت مستغرقة فى نوم عميق ..

فقال الكونت :

— ولكن أين راح العقد ؟.. لقد فتشوا أمتعة الغلام فلم يجدوا بها شيئا ..

— أرجو المعذرة يا سيدى الكونت .. فقد كان الغلام يخرج من المنزل كل يوم ، وعندما رأيتموه يقرأ كتابه فى صباح اليوم التالى كان قد عاد من المدرسة للتو .. ولعله كان أولى برجال البوليس وأنفع ، بدلا من ارهاق الأم البريئة المسكينة بشكوكهم وأسئلتهم ، أن يبحثوا فى درج الغلام بالمدرسة .. بين كتبه وأوراقه وكراساته ..

— كل هذا حسن .. ولكن ما رأيك فى الألفى فرنك اللذين كانت هنرييت تتلقاهما كل عام ؟.. أليس فى ذلك أبلغ الدلالة على اشتراكها فى الجرم ؟

— وهل كانت تكتب لكم شاكرة هذا الصنيع إذا كانت شريكة السارق ؟.. وزيادة على ذلك ألم تكن موضوعة تحت الرقابة الصارمة ؟.. بينما كان الغلام حراً فى الذهاب حيثما يشاء ، وكان فى وسعه أن يمضى إلى أقرب بلدة فيقابل أحد تجار الحلى المسروقة ويبيعه ماسة أو اثنتين بثمن بخس .. كيفما يحتاج الأمر .. على شرط أن يبعث بالنقود من باريس ، ولقاء ذلك يتكرر البيع له كل عام ..

وأحس الكونت والكونتس دى درو سوبيز وأضيافهما بشعور غامض من القلق والاضطراب يجثم فوق صدورهم .. فقد كان فى نبرات الشيفاليه فلوريانى وهيئته شىء أكثر من تلك الثقة وهذا التأكيد الذى كان يتحدث بهما وأزعجا الكونت من بادىء الأمر .. كان فى نبرات صوته رنة من السخرية اللاذعة .. سخرية تخالطها المرارة ويشوبها الجفاء .. لا سخرية الصديق المشفق التلطف ..

واغتصب الكونت ضحكة وهو يقول :

— كل هذا عرض بديع يدل على براعتك فى الاستنتاج يا سيدى .. فتقبل تهانئى وإعجابى .. فان لك خيالا خصبا وذكاء وقاداً ..

فصاح فلوريانى وهو يزداد رصانة وجداً :

— كلا .. كلا .. كلا .. إننى لا أتخيل شيئا .. وليس ما قلته لكم من وحى الخيال أو الوهم .. وإنما أعدت تصوير الظروف التى لا أشك لحظة فى أنها كانت مثلما وصفتها تماما ..

— ومن أين لك هذا اليقين ؟..

— مما أخبرتنى به أنت نفسك .. وقد تصورت حياة الأم وغلامها فى الريف ،

وحلول المرض بالأم التعسة ، ثم ألاعيب الغلام وحيلته كي يبيع الماسات وينقذ أمه . . أو على الأقل يساعد على تخفيف وطأة المرض عنها فى شهورها الأخيرة .. ولكن المرض يقضى عليها . . فتموت . . وتنقضى أعوام وأعوام .. وينمو الغلام ويكبر ويغدو رجلا . . وعندئذ . .

وتمهل الشيفاليه لحظة ، ثم استطرد فى شىء من التهكم :

— إننى الآن سوف أمد لخيالى العنان قليلا لقد يشتط بى .. فافرضوا معى أن هذا الرجل ، هذا الغلام الذى نما وترعرع ، قد شعر بحنين إلى أن يعود للمكان الذى قضى فيه طفولته .. وأن يراه ثانية .. وأن يرى الناس الذين ارتابوا فى أمه واتهموها ظلماً وتصوروا معى مبلغ اللهفة الأليمة التى يحسها لمثل هذا اللقاء فى المنزل القديم الذى مرت مراحل المأساة تحت سقفه ! .

وظل صدى هذه الكلمات يدوى فى الحجرة لحظة طويلة وسط الصمت الثقيل الذى ران فوقها .. على حين اربد وجها الكونت والكونتس دى درو ،وبدت فى أساريرهما آثار محاولتهما الفاشلة لفهم ما يسمعان ، ثم علائم الفزع والرهبة من هول مايفهمان .

وأخيرا غمغم الكونت بين أسنانه :

— خبرنى ياسيدى !. من أنت ؟. من أنت بحق الشيطان !.

— أنا ؟. إننى الشيفاليه فلوريانى ، الذى قابلته فى بالرمو وتفضلت بدعوته إلى منزلك مرة بعد مرة .

— إذن ما معنى هذه القصة ؟..

— آه !. لا شىء البتة !. إنها مجرد مزحة من جانبى للترويح عن نفوسكم .. فقد كنت أحاول أن أرسم لنفسى صورة ابن هنرييت ، إذا كان لا يزال على قيد الحياة واللذة التى كان يمكن أن يشعر بها عندما يقول لكم إنه السارق الوحيد ، وإنه فعل ذلك لأن أمه كانت على وشك أن تفقد مركزها ك .. كخادمة فى هذا المنزل ، وهى المصدر الوحيد لرزقها وقوام حياتها .. ولأن الغلام كان يتألم أشد الألم لرؤية شقاء أمه ويأسها .

وكان فلوريانى قد هم فى مقعده ، ومال بجسمه إلى الأمام صوب الكونتس وراح ينطق بهذه العبارات فى انفعال مكتوم وألم مكبوت .

ولم يبق لدى أحد ذرة من الشك ..

فالشيفاليه فلوريانى ليس إلا راؤول ابن هنريت ..

كان كل شىء فى هيئته ، وفى كلماته ، وفى نبرات صوته ينم على هذه الحقيقة الرهيبة بل كانت رغبته الواضحة ، وإرادته ، الظاهرة ، أن يعرف الحاضرون تلك الحقيقة وتردد الكونت .. ولم يدر أى مسلك يتخذه حيال هذا المخلوق الجرىء .. أتراه يقرع الجرس للخدم ؟.. وهل يثير فضيحة مدوية ؟.. ويكشف الستار عن ذلك الشرير الذى سلبه تلك الثروة الفريدة ؟.. ولكن لقد انقضى وقت طويل على الحادث .. ومن ذا الذى يصدق هذه القصة عن الغلام السارق ؟..

كلا .. إنما الخير كل الخير فى قبول الأمر الواقع ، والتظاهر بأنه لم يفهم معناه الحقيقى ..

وعندئذ مضى صوب الشيفاليه وقال كأنما يداعبه :

— إن قصتك الصغيرة مسلية للغاية .. وأؤكد لك أنها قد استحوذت على لبي .. ولكن ما الذى انتهى اليه أمر هذا الشاب المثالى ، وهذا الابن النموذجى ، فى رأيك؟ أحسب أنه لم يقف عند هذا الحد فى طريقه الناجح نحو الثراء ؟ ..

— كلا ، بلا ريب !..

— طبعا.. وخصوصا بعد بداية عظيمة كهذه !.. بعد أن يقتنص ،وهو فى السابعة من العمر ، عقد الملكة .. العقد التاريخى الذى اشتهته مارى انطوانيت ! ..

فقال فلوريانى وهو يتابع الكونت فى لهجته الساخرة :

— وأن يقتنص هذا العقد الثمين دون أن يكبده أى عناء أو مضايقة .. فلم يفكر البوليس قط فى فحص المصراع الزجاجى ، أو يلاحظ أن قاعـــدة النافذة كانت نظيفة تماما ، أكثر مما ينبغى، بعد أن مسحها الغلام ليمحو آثار أقدامه التى ارتسمت فوق التراب الكثيف الذى كان يكسوها !.. ولعلك تعترف يا سيدى أن ذلك فى حد ذاته كان كافيا ليدير رأس غلام فى مثل سنه .. كان كل شىء سهلا ميسورا أمامه. أليس كذلك؟ لم يكن عليه سوى أن تتملكه الرغبة وأن يمد يده .. حسنا .. لقد تملكته الرغبة ..

فأتم الكونت العبارة :

ـــ وعندئذ مد يده . . ؟

فقهقه فلورياني ضاحكا ، وقال :

ـــ بل كلتا يديه ..!

فسرت الرعدة فى أبدان مستمعيه .. ترى أى سر غامض يخفى حياة فلوريانى هذا ، وأية حياة شاذة خارقة يحياها ذلك المغامر الذى كان لصاً موهوبا وهو بعد فى السادسة أو السابعة من عمره ، والذى جاء اليوم بعد أن صقلت مواهبه ورسخت أقدامه ، ليبحث عن المغامرة المثيرة ، أو على الأقل ليرضى نزعة الانتقـام والتشفى فى نفسه ، ويواجه ضحيته ، فى منزل تلك الضحية نفسها ، وفى جرأة منقطعة النظير . . وهو بعد يأتى فى سلوك الرجل المهذب وأدبه الجم .. !!

ونهض فلوريانى فمضى نحو الكونتس ليستأذن فى الانصراف .. فأجفلت السيدة وكادت تتراجع الى الوراء ، فابتسم لها قائلا :

ـــ آه ..! هل سرى الخوف الى نفسك يا سيدتى ؟ وهل ترينني مضيت شأواً بعيداً فى تلك الأسطورة الخرافية ؟

ـــ كلا البتة يا سـيدى . . بل إن أسطورة هذا الابن الطيب ، على العكس ، قد سرتنى كثيرا .. وإنى لسـعيدة إذ أرى أن عقدى كان فاتحة مستقبل باهر عظيم له فى تلك المهنة .. ولكن ألا يخيل اليك أن ابن تلك .. تلك المرأة .. ابن هنرييت .. كان قبل كل شيء وفوق كل شيء يطيع نداء غريزته وطبيعته ؟

فبغت الشيفاليه ، وأحس بلذع هذه الملاحظة ، ولكنه أجاب :

ـــ إنى واثق من أنه كان كذلك حقا .. ولا ريب عندى فى أن ذلك النداء كان قويا ، ملحا ، وإلا لفترت حماسة الغلام وعدل عن المضى فى خطته ..

ـــ ولماذا ؟

ـــ حسنا .. لقد كانت معظم الماسات زائفة ، كما تعلمين ! وكانت الماسات الحقيقية القليلة هى تلك التى اشتريت من الجوهرى الانجليزى .. أما الأخرى فكانت قد بيعت واحدة بعد الأخرى ، تحت وطأة مطالب الحياة القاسية ..

فقالت الكونتس فى ترفع :

— لقد كان ذلك يا سيدى « عقد الملكة » قبل كل شىء .. ويبدو لى أن ذلك شىء لم يكن بوسع ابن هنزييت أن يفهمه ..

— لا ريب أنه قد فهم يا سيدتى أن ذلك العقد ، سواء أ كان زائفا أم صحيحا ، إنما كان لدى أصحابه أشبه بالمعرض .. أو بوسيلة للاعلان !..

فتحرك مسيو دى درو خطوة إلى الأمام ، ولكن زوجه أوقفته للتو .. وقالت الشيفاليه :

— سيدى .. لو أن الرجل الذى تشير إليه كان لديه أقل ذرة من الخجل أو الحياء ...

وترددت ، ثم كفت عن اتمام كلامها أمام نظرات فلوريانى الهادئة .. ولكنه استحثها إلى متابعة حديثها وهو يردد عبارتها الأخيرة :

— نعم ؟.. لو كان لديه أقل ذرة من الخجل أو الحياء ؟..

فأحست الكونتس أنها لن تجنى شيئا من التحدث إليه بهذه اللهجة .. وعلى الرغم من غضبها واشمئزازها وشعورها بكرامتها المهيضة .. فقد قالت فى أدب ورقة :

— سيدى .. لقد حدثنا التاريخ بأن ريتودى فيليت ، عندما وقع عقد الملكة فى يده اغتصب الماسات التى كانت به ولكنه لم يجرؤ على المساس بهيكل العقد نفسه .. فقد أدرك أن الماسات ليست إلا حلية إضافية .. أما هيكل العقد فهو العمل الفنى الأصلى الثمين .. ولذلك احترمه ولم يمسسه بسوء .. فهل تعتقد أن ذلك الرجل قد فهم ذلك بالمثل ؟..

— إننى لا أشك البتة فى أن هيكل العقد لا يزال موجوداً .. فقد احترمه الغلام بدوره !..

— حسنا يا سيدى .. إن لى رجاء حارا اليك .. فاذا حدث أن قابلت هذا الرجل وإنى واثقة من أنك ستفعل ، فأرجو أن تقول له إنه يرتكب ظلما بينا باحتفاظه بتلك الذخيرة التى تعد تراث المجد الخالد للأسرة التى تملكها .. وعلى الرغم من أنه قد جرده من ماساته ، إلا أن عقد الملك هو ذخيرة أسرة درو - سوبيز منذ قرن كامل .. وهو بالنسبة الينا كاسمنا أو شرفنا ..

فأجاب الشيفاليه فى بساطة :

— سوف أقول له ذلك يا سيدتى !

ثم انحنى أمامها انحناء عميقا ، كذلك انحنى للكونت ، ولسائر الضيوف ، واحداً بعد الآخر .. وانصرف خارجا ..



وبعد أربعة أيام ، وجدت مدام دى درو علبة من الجلد الأحمر الفاخر ، وقدوشيت بشعار الكردينال دى روهان ، فوق خوان حجرة النوم الخاصة بها .. فلما فتحتها ، وجدتها تحوى عقد الملكة مارى انطوانيت ..

ولكن الغريب أنه على الرغم من السرية التى أحيطت بها هذه الوقائع الأخيرة ، فقد نشرت صحيفة « صوت فرنسا » فى اليوم التالى هذه الفقرة :

« استطاع أرسين لوبين أن يستعيد عقد الملكة ، تلك الحلية التاريخية الشهيرة التى سرقت منذ أعوام طويلة من أسرة درو - سوبيز .. وقد بادر أرسين لوبين الى إعادته لأصحابه الشرعيين . وهذه لفتة رقيقة تدل على الشهامة والنبل ، لا نشك لحظة فى أنها سوف تقابل من الجميع بالتقدير والثناء .. ! »

القسم الرابع — اللؤلؤة السوداء

انبعث رنين الجرس فى عنف فأيقظ حارسة باب المنزل رقم ٩ بشارع هوش من نومها .. وجذبت حبل الباب وهى تغمغم :

— حسبتهم قد عادوا جميعا .. فان الساعة الآن تتجاوز الثالثة صباحا ..

فقال زوجها وهو يغالب النعاس :

— لعل هناك من يريد الطبيب ..

والواقع أنهما سمعا فى تلك اللحظة صوتا يسأل :

— الدكتور هاريل .. أين شقته ؟..

— فى الطابق الثالث إلى اليسار .. ولكنه لا يخرج أثناء الليل ..

— سوف يضطر إلى الخروج هذه المرة ..

ودلف السائل إلى الدهليز ، ثم راح يرتقى الدرج إلى الطابق الأول ، فالثانى ..

ولم يفكر فى التوقف عنـد الطابق الثالث ، حيث يقيم الطبيب ، وإنما مضى فى طريقه حتى بلغ الطابق الخامس .. وعندئذ أخرج من جيبه مفتاحين راح يجربهما فى أحـد الأبواب ، ففتح أحدهما القفل ، بينما رفع الآخر المزلاج الداخلى .. فغمغم :

ــ عظيم .. إن هـذا يسهل الأمر كثيراً . . ولـكن لنحفظ لنفسنا خط الرجعة قبل أن نبدأ العمل!.. ترى هل انقضى وقت معقول يكفى لطرق باب الدكتور هاريل وسماع رفضه الخروج فى تلك اللحظة ؟.. كلا .. لم ينقض وقت كاف بعد .. وينبغى أن أنتظر فتره أخرى ..

ومضت عشر دقائق ، ما لبث بعدها أن هبط الدرج ثانية ، ثم طرق نافذة حجرة الحارسة وهو يهـدر ويغمغم ساخطا لاعنا الطبيب الذى رفض أن يصحبه ..وعندئذ فتح الباب الخارجى ، فخرج وهو يجذبه وراءه فى عنف .. إلا أن الباب لم يوصد ، إذ كان صاحبنا قد أسرع ودس قطعة من الحديد فى فتحة الرتاج ليحول دون إغلاقه وعاد فى خفة عجيبة ، دون أن يند عنه صـــوت أو حفيف ، ودون أن تحس به الحارسة وزوجها .. بعـد أن ضمن لنفسه طريق الخروج ، إذا ما طرأ ما يدفعه إلى التعجيل بالفرار ..

وعاد يرتقى الطوابق الخمسة فى هـــدوء . . فلما ولج باب الطابق الأخير ، أضاء مصباحه الـكهربائى الصغـير ، فألفى نفسـه فى الردهـة . . وعندئذ نزع معطفه وقبعته ووضعهما على أحد المقاعد ، ثم جلس على مقعد آخر ، وأخـــذ يدس قدميه فى نعلين من اللباد ، فوق الحذاء ..

وكان يحدث نفسه قائلا :

ــ ها قد وصلنا .. ولعمرى إنها مهنة سهلة يسيرة . . وإنى أسائل نفسى أحيانا لماذا لا يختار كل إنسان هذه المهنة المربحة ، مهنة السطو والسرقة !.. فيكفى أن يؤتى المرء شيئا من المهارة وسرعة الخاطر ، فلا يجد ما يدانى هذه المهنة لذة وفائدة !.. وهى كذلك مهنة مربحة ، منتظمة ، تصلح لأرباب العائلات الذين يريدون العيش فى يسر ورخاء .. وهى بعد ذلك أقل المهن عناء ومشقة .

ثم أخرج من جيبه رسما دقيقا للمسكن ، وتابع حديثه لنفسه :

— لنبدأ بفحص ما يحيط بنا .. آه !. ها هى الردهة المربعة التى أجلس فيها الآن !. وهناك ثلاث حجرات تطل على الشارع هى حجرة للاستقبال ، وأخرى للـ ينة ، وثالثة للطعام . . وليس ثمة فائدة من أن أضيع وقتى فيها ، إذ يبدو أن الكونتس لا تحب التحف الثمينة ، ولا تقتنى منها شيئا ذا قيمة .. ولأمض قدما نحو هدفى .. آه !. ها هو الممر .. الممر المؤدى إلى حجرة النوم .. وعلى بعد ثلاث ياردات من بدايته ، ينبغى أن أجد باب خزانة الثياب ، التى تتصل بحجرة الكونتس . .

ودس الرسم والمصباح الكهربائى فى جيبه ثم بدأ يسير فى الممر وهو يقول :

— ياردة .. اثنتان .. ثلاث ياردات .. ها هو الباب !.. يا لله ! . . ما أدق هذا الرسم !.. لم يبق إلا مزلاج واحد صغير يفصلنى عن حجرة النوم .. ولكنى أعلم أن هذا المزلاج على ارتفاع ثلاثة أقدام ونصف من الأرض .. وليس على إلا أن أثقب دائرة صغيرة حوله فأتخلص منه سريعا ..

وبدأ يخرج الأدوات اللازمة من جيبه . ولكن خامرته فكرة جديدة أوقفته وهو يقول :

— هب أن المزلاج لم يوضع فى مكانه الليلة من قبيل الصدفة !.. فلنجرب أولا . .

وأدار أكرة الباب ، فاذا به يجده ـ لدهشته العظيمة ـ يفتح فى سهولة !!

أرسين لوبين !. يا صديقى المحظوظ !. إن الحظ فى جانبك الليلة بلا شك !. فما الذى تبغيه أكثر من ذلك ؟.. إنك تعرف جغرافية الميدان الذى تقوم فيه بعملياتك الحربية جيداً !. وتعرف أين تخفى الكونتس اللؤلؤة السوداء . . فمعنى ذلك أن اللؤلؤة السوداء قد غدت لك .. وكل ما ينبغى عليك عمله ، هو أن تكون أشد هدوءاً من الصمت نفسه ، وأشد خفاء من الظلام ذاته .

وقد استغرق لوبين نصف ساعة بتمامها فى فتح الباب الثانى . . وهو باب زجاجى يؤدى إلى مخدع الكونتس .. ولكنه فتحه فى حذر بالغ بحيث لو كانت الكونتس مستيقظة لما سمعت صوتا أو حركة مريبة تزعجها .

وتبعا للبيانات التى كان الرسم يحويها ، فقد كان عليه أن يتبع استدارة الأريكة ، وسوف يجد بعدها مقعدا هزازا ، ثم منضدة صغيرة بجوار الفراش .. وعلى هذه المنضدة

وجد علبة من الورق المقوى ، أخفيت بداخلها فى بساطة ، اللؤلؤة السوداء .

وجثا فوق البساط ، ثم راح يزحف متتبعا حدود الأريكة .. ولكنه ما كاد يبلغ طرفها حتى توقف وقد شعر بقلبه ينبض فى عنف .. فعلى الرغم من أنه كان لا يستشعر خوفا أو وجلا ، إلا أنه من المحال أن يقهر المرء ذلك الاضطراب الذى يعتريه إذا ما ألفى حوله سكوناً كسكون القبور !. سكونا غير مألوف أو معهود !.

وقد دهش لما يحس به فى قرارة نفسه ، فقد مرت به لحظات أشد حرجا من هذه دون أن يخالجه شيء من الانفعال .. وكان يعلم أنه ما من خطر يتهدده الآن .. فلماذا راح قلبه يخفق كأنه ناقوس محموم !.. أهو وجود تلك المرأة المستغرقة فى النوم ، الذى يبعث فيه الشعور بالرهبة والاضطراب ؟.

وأصاخ بسمعه فى انتباه ، وقد ركز حواسه فى أذنيه ، فخيل اليه أنه يسمع تنفسا رتيبا منتظما .. وعندئذ هدأ روعه ، كما لو كان فى حضرة صديق له !..

وجعل يتحسس طريقه إلى المقعد الهزاز ، ثم أخذ يتحرك فى خفة وبطء ، وهو يمد ذراعيه أمامه بحثا عن المنضدة فى ذلك الظلام الحالك .. وما لبث أن لمست يده اليمنى إحدى قوائمها .. فتنفس الصعداء !.

لم يبق أمامه إلا أن يرفع نفسه قليلا قليلا ، حتى ينهض على قدميه فيأخذ اللؤلؤة السوداء ، ويعود أدراجه .. كل ذلك حسن ، لولا أن قلبه قد عاد يضطرب ويخفق فى صدره كحيوان حبيس مذعور ، مرسلا دويا مكتوما حتى لقد خيل اليه أن الكونتس سوف تستيقظ على صوته حتما .

وبذل جهدا خارقا من الارادة والعزيمة حتى هدأ روعه قليلا .. ولكنه ما كاد يحاول النهوض حتى ارتطمت يده اليسرى بشيء ملقى على البساط ، أدرك لأول وهلة أنه شمعدان .. شمعدان مقلوب .. وفى اللحظة نفسها ، مست ذراعه شيئا آخر .. ساعة منبهة من ساعات السفر الصغيرة ، داخل جراب من الجلد .

ما معنى ذلك كله ؟. وما الذى حدث فى الحجرة ؟ . إنه لا يفهم شيئا . . لماذا كانت الساعة والشمعدان فى غير موضعهما المعتاد ؟. آه !. هذا الظلام اللعين . . ترى ما الذى يخفيه ؟ . .

وبغتة ندت عن شفتيه صيحة خافتة لم يستطع كتمانها .. فقد لمس أيضا .. آه ! . لقد لمس شيئا عجيبا ، لا يستطيع أن يطلق عليه اسما . . ولكن لا !. لا بد أن الخوف قد شل تفكيره وأثر على عقله !.

فظل عشرين ثانيـة ، ثم ثلاثين ، مستلقيا فى مكانه بلا حراك ، وقد صعقه الفزع الرهيب ، والعرق ينبثق من جبينه .. وكانت أنامله لا تزال تحس بقشعريرة هذه اللمسة الرهيبة .

وبذل جهداً جبارا ، ثم مد يده ثانية ،. ومرة أخرى لمست يده ذلك الشيء العجيب الذى لا يستطيع أن يطلق عليه اسما .. وراح يتحسسه ، ويصر على أن تحس به يده ، حتى يتحقق من أنه ليس وهما من الأوهام .. ولكن .. إنه حقيقة ثابتة.. وهذا الشيء ليس إلا خصلة من الشعر .. ووجها آدميا .. وجها سرت فيه البرودة .. بل إنه كان فى مثل برودة الجليد..!!

ومهما كانت الحقيقة باعثـة على الفزع ، إلا أن رجلا كأرسين لوبين لا يلبث أن يسيطر على أعصابه بمجرد معرفته كنه تلك الحقيقة . . ولذلك سرعان ما ضغط على زر مصباحه الكهربائى الصغير ، فرأى أمامه امرأة طريحة على البساط ، تغطيها الدماء الغزيرة ، على حين كان عنقها وكتفاها ممزقة بجراح بشـعة مروعة .. فانحنى فوقها يفحصها ، ووجدها جثة ..

وراح يغمغم فى دهشة : ميتة ..! ميتة ..!

وكان ينظر الى العينين المفتوحتين على سعتهما ،وقد ارتسمت فيهما أبلغ علائم الذعر والفزع .. وإلى الفم المنفرج ، والبشرة الزرقاء الداكنة ، وإلى تلك الدماء التى كانت تغمر البساط ، وقد بدأت تتجمد وتتكثف وينقلب لونها أسود قاتما !

ونهض لوبين من مجثمه ، ثم أضاء النور الكهربائى .. وعندئذ رأى الغرفة مليئة بعلامات الصراع الهائل الذى حدث فيها . . كان الفراش مختلا ، وقد تناثرت الأغطيـة والملاءات فى زواياه ، بينما كان الشمعدان ملقى على الأرض ، وكذلك السـاعة ، وقد أشارت عقاربها الى الحادية عشرة والثلث .. كذلك رأى مقعداً مقلوبا فى ناحيـة من الحجرة ، بينما كانت الدماء فى كل مكان .. برك من الدماء ..

وغمغم يقول : واللؤلؤة السوداء ؟

وكان صندوق الورق القوى فى موضعه المعهود .. ففتحه على عجل ، فاذا به يحوى علبة الحلى .. فارغة ..

وعاد يقول لنفسه :

— يا للشيطان .. ، لقد كنت تفخر منذ لحظة بأنك رجل مجدود الطالع يا صديق أرسين لوبين ..! فهاك الكونتس قتيلا . . واللؤلؤة السوداء طائرة مع الريح .. إنه موقف لا يستحق التهنئة يا صديقى ..! وخير لك أن تبادر بالانسحاب ، قبل أن تزج كتفاك تحت عبء ثقيل من المسئولية ..

ومع ذلك فلم يتحرك لوبين قيد شعرة ، وعاد يحدث نفسه :

— الانسحاب ؟.. إنه خليق بغيرى .. ولكن أرسين لوبين !.. ترى هل هناك ما يمكن عمله ؟.. هيا .. تعال نبدأ فى نظام وترتيب .. ومهما يكن من أمر فان ضميرك ليس به ما يثقله .. وما عليك إلا أن تفرض أنك قوميسير البوليس الذى عهد إليه بتحقيق الحادث . . ولكن ذلك يحتاج إلى ذهن صاف هادىء . . أما أنت فان ذهنك فى حالة يرثى لها من الاضطراب والفوضى الآن !..

ثم جلس على أحد المقاعد ، وهو يضغط براحتيه على جبينه الملتهب ..



كانت جريمة شارع هوش من أشد الجرائم غموضا وخفاء فى الأعوام الأخيرة . . وما كنت لأستطيع البتة أن أروى هذه القصة لولا أن الدور الذى لعبه أرسين لوبين فيها قد ألقى عليها ضوءاً خاصاً .. ومع أن هناك أناساً قلائل يرتابون فى طبيعة هذا الدور إلا أن أحداً لا يعرف قط الوقائع الصحيحة العجيبة التى حدثت !..

ومن ذا الذى لم ير ليونتين زالتى وهى تطوف بعربتها فى غابة بولونيا ، ولم يعرف فيها تلك التى كانت من شهيرات مغنيات الأوبرا ، ثم غدت زوجة فأرملة للكونت دانديلو؟.. زالتى التى كان بذخها وطريقتها فى الحياة تبهر الباريسيين منذ عشرين عاما !.. زالتى ، كونتس دانديلو ، التى كانت تدين بشهرتها وذيوع صيتها فى أوربا إلى مجموعتها العظيمة من الماسات واللآلىء !.. وقد اعتاد الناس أن يتندروا قائلين إنها تحمل فوق كتفيها

خزائن المال لأعظم المصارف ، ومناجم الذهب لأكبر شركات استراليا !.. فقد كان كبار تجار الحلى وصانعيها يشتغلون من أجلها كما كانوا يفعلون للملوك والملكات فى العهود الماضية . . .

ومن ذا الذى لا يذكر تلك الكارثة الماحقة التى حلت بها وابتلعت هذه الكنوز جميعها ؟. خزائن المصارف ومناجم الذهب !.. لقد راحت جميعها وابتلعتها هاوية سحيقة من الخراب فتبعثرت تلك المجموعة العظيمة بين مختلف الأنحاء وسط عاصفة من الانفعال ، وبين دوى مطارق أدلاء المزادات .. فلم تستخلص الكونتس منها غير اللؤلؤة السوداء الشهيرة تلك اللؤلؤة النادرة الثمينة التى تساوى فى حد ذاتها ثروة طائلة ، لو أن الكونتس قد رضيت ببيعها والتخلى عنها ..

ولكنها كانت ترفض وتصر على الرفض دائماً .. وكانت تفضل أن تقتصد فى نفقاتها وأن تعيش فى شقة متواضعة ، عن أن تبيع تلك التحفة النادرة .. وهكذا أقامت الكونتس فى المسكن رقم ٩ بشارع هوش ، لا يخدمها سوى وصيفة وطاهية وخادم من الرجال ..

وما كانت لتتردد فى الاعتراف بسبب احتفاظها بهذه التحفة ، والضن ببيعها .. كانت اللؤلؤة السوداء هدية أمبراطور ! . . وعلى الرغم من الخراب الذى حل بها ، وعيشة الضنك والعوز التى كانت تحياها ، فقد أبت أن تتخلى عنها ، وظلت وفية لرفيقة أيامها العظيمة الغابرة ..

وكانت تقول : طالما بقيت على قيد الحياة ، فلن تغيب عن ناظرى قط ..

وقد اعتادت أن تضعها حول عنقها من الصباح إلى المساء . . حتى إذا ما جن الليل وضعتها فى مكان لا يعرفه أحد سواها ..

كل هذه الحقائق ذكرتها الصحف فأثارت فضول الرأى العام . . ومن الغريب أنه على رغم بساطة الأمر فى نظر أولئك الذين كانوا يملكون مفتاح هذا اللغز ، فقد كان القبض على المتهم بالقتل باعثاً على ازدياد تعقد السر وإطالة انفعال الجماهير ..

فبعد يومين من الجريمة نشرت الصحف الأنباء التالية :

« علمنا أن البوليس قد ألقى القبض على فكتور دانجر ، خادم الكونتس دانديلو ويقال إن الدليل الذى وجد ضده دليل هام ، فقد وجدت بقع من الدماء على كم سترته الرسمية التى كانت فى حجرته مخبأة بين حشايا الفراش ، وقد وجدها مسو ديدوى

مدير إدارة المباحث الجنائية بنفسه .. وفضلا عن ذلك فقد وجد أحد أزرار تلك السترة أيضاً .. وكان البوليس فى بداية التحقيق قد عثر على هذا الزر تحت فراش القتيل ..

ومن المرجح أنه بعد الفراغ من العشـــاء لم يذهب دانجر الى حجرته فى جناح الخدم ، وإنما تسلل الى خزانة الثياب فرأى من خلال الباب الزجاجى الكونتس وهى تخفى اللؤلؤة السوداء ..

ويجدر بنا أن نضيف أنه لم يظهر أى دليل حاسم يعزز الاتهام .. ومهما يكن من أمر فان هناك نقطة واحدة لم يمكن تعليلها .. ذلك أنه فى الساعة السابعة من الصباح ذهب دانجر الى حانوت بائع السجائر بشارع كورسيل .. وقد شهد صاحب الحانوت وحارسة الباب بذلك .. ومن جهة أخرى شهدت الطاهية والوصيفة ، وكلتاهما تنام فى حجرة واحدة فى نهاية الممر ، بأنهما عندما استيقظتا فى الساعة الثامنة من الصباح كان الباب الخارجى وباب الخدم موصدين .. وقد قضت المرأتان أكثر من عشرين عاما فى خدمة الكونتس ولا يتطرق الشك اليهما البتة .. فكيف استطاع دانجر إذن مغادرة الشقة ؟ هل كان معه مفتاح آخر صنعه لاستعماله الخاص ؟ هذا ما سوف يسفر التحقيق عنه

ولكن التحقيق ، على العكس ، لم يسفر عن شىء البتة .. وقد تبين أن فكتور دانجر كان مجرما خطراً وقضى مدة طويلة فى السجون ، فضـــلا عن أنه مدمن خمر سىء الخلق ، لا يتورع عن استخدام المدية ! ولكن القضية نفسها كانت تزداد كل يوم غموضا وخفاء ، وتتضاعف طبقات الظلام الكثيفة التى تحيط بها .. وكلما أمعن البوليس فى البحث ألفى نفسه أمام حلقة من المتناقضات لا يجد لها تعليلا ..

فأولا ، أعلنت الآنسة دى سنكليف ، ابنة عم القتيلة ووريثتها الوحيدة ، أن الكونتس أخبرتها فى أحد خطاباتها ، قبل الجريمة بما يقرب من الشهر ، عن المكان الذى تخفى فيه اللؤلؤة السوداء .. ولكن هذا الخطاب اختفى فى اليوم التالى لوصوله اليها ..

فمن الذى سرقه ؟..

وقررت حارسة الباب وزوجها ، من جهة أخرى ، أنهما فتحا الباب الخارجى لرجل زعم أنه يريد الدكتور هاريل .. فلما سأل البوليس الطبيب نفى أن أحداً قد طرق بابه فى تلك الساعة .. فمن يكون هذا الرجل إذن ؟ .. أهو شريك للقاتل ؟ ..

وقد لقيت هـذه الفكرة ، عن وجود شريك للقاتل ، قبولا لدى الصحف ولدى

الجمهور .. ولكن جانبار ، كبير المفتشين السريين العجوز ، قبل الفكرة وأوضح رأيه لقاضى التحقيق قائلا : إننى أرى أصبع لوبين فى هذه القضية .

— هراء !.. إنك ترى لوبين هذا فى كل شىء ..

— نعم .. أراه فى كل شىء ، لأنه موجود فى كل شىء حقا ..

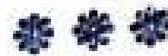
— بل الأحرى أن تقول إنك تراه حينما تجد أمامك قضية غامضة لا تظهر لك خوافيها فى وضوح . . إلا أن هناك شيئا فى هذه القضية بالذات أود أن أذكرك به .. فقد ارتكبت الجريمة فى الساعة الحادية عشرة والثلث ، وهو الوقت الذى وقف عنده عقربا الساعة ، بينما تلك الزيارة الليلية التى ذكرتها حارسة الباب وزوجها لم تتم إلا فى الساعة الثالثة صباحا . .

وكلنا نعلم أن البوليس غالبا ما ينساق وراء نظريته الأولى ، فيحاول أن يعلل كل شىء وفقاً لهذه النظرية .. ومن جهة أخرى كانت سوابق فكتور دانجر ، وقد قلنا إنه قضى مدة طويلة فى أعماق السجن وأنه سكير متلاف ، هى العامل الأكبر فى اقناع قاضى التحقيق بادانته ، دون أن تؤيدها الأدلة الحاسمة .. ولذلك فان عدم قيام أدلة جديدة تعزز الشبهات الأولى ، لم يؤثر على رأى قاضى التحقيق الذى أعد وقدم القضية إلى محكمة الجنايات حيث بدأت المحاكمة بعد أسابيع قليلة ..

وكانت هذه المحاكمة مملة سقيمة .. كان رئيس المحكمة لايبدى أقل اكتراث بالقضية وكان المدعى يقود الاتهام فى ضعف وتراخ .. ولذلك كانت مهمة محامى دانجر سهلة ميسرة إذ راح يشير إلى الثغرات التى تتخلل الأدلة .. ولم يكن فى الدعوى دليل مادى واحد .. فمن الذى صنع المفتاح الذى لولاه لما استطاع دانجر غلق باب المسكن عند انصرافه ؟. ومن ذا الذى رأى هذا المفتاح وأين هو ؟. ثم أين السكين التى استخدمت فى الجريمة ومن ذا الذى رآها ؟. ثم اختتم مرافعته قائلا :

— ومهما يكن من أمر فان على المدعى أن يعزز اتهامه بالأدلة .. عليه أن يثبت أن موكلى هو القاتل .. وعليه أن يثبت أن السارق والقاتل ليس ذلك الشخص الذى دخل المنزل فى الساعة الثالثة من الصباح .. لقد وقفت عقارب الساعة حقاً على الحادية عشرة والثلث .. فعلى أى شىء يدل ذلك ؟. أليست عقارب الساعة يمكن إدارتها على الوقت الذى يراه المرء مناسباً ؟.

وعلى أثر ذلك قضى ببراءة فكتور دانجر وأطلق سراحه .



وغادر السجن ، يوم الجمعة ذات أسبوع قبل الغروب ، وقد هزل جسمه واضمحلت قواه بفعل الشهور الستة التى قضاها فى السجن .. كما أن التحقيق ، والسجن الانفرادى والمحاكمة ، ومداولة المحلفين ، كل هذه أرهقت أعصابه وملأته بالفزع الرهيب المضنى.. فكانت تؤرق نومه الأحلام الفظيعة ، ويتراءى له شبح المقصلة الهائل ،فيرتعد من هول الذعر وتسرى الحمى فى بدنه .

واتخذ لنفسه اسم أناتول ديفور ، واستأجر حجرة صغيرة فى مرتفعات مونمارتر وأخذ يمارس أعمالا حقيرة تافهة . . كانت حياته تعسة قاسية .. وفى ثلاث مرات مختلفة اكتشف مخدوموه أنه فكتور دانجر ، فكان يطرد من عمله للتو واللحظة .

وكان غالبا ما يرى ، أو يخيل اليـــه أنه يرى ، رجالا يتبعونه ويقتفون أثره . . وهم رجال لاشك فى أنهم ينتمون إلى البوليس .. ولن يكفوا عنه ، ولن يهدأ لهم بال حتى يقتنصوه فى شرك لاريب أنهم ينصبونه له خفية

وذات ليلة كان يتناول عشاءه فى مطعم صغير بالقرب من منزله ، عندما رأى شخصا يدخل المطعم ويجلس قبالته .. كان رجلا فى نحو الأربعين من العمر ، يرتدى معطفاً طويلا اسود اللون ، رثت خيوطه ، وحال لونه .. وطلب الرجل بعض الحساء ،وصحفة من الخضر ، وزجاجة من النبيذ . . وإذ بدأ يلتهم طعامه ، حدج دانجر بنظرة طويلة فاحصة متفرسة . .

وغاص قلب دانجر ، وامتقع وجهه .. فلا ريب أن الرجل ليس إلا واحداً من هؤلاء الذين كانوا يتبعونه ليل نهار خلال الأسابيع الماضية . . فما الذى يريده منه ؟..

وحاول أن ينهض فينصرف ، ولكنه لم يستطع إذ كانت ساقاه ترتجفان تحته ..

وملأ الغريب لنفسه قدحا من النبيذ ، ثم ملأ لدانجر قدحا ، وهو يقول :

— هل لك فى بعض الشراب أيها الزميل ؟

فتلعثم دانجر وقال : شكراً .. شكراً لك .. نخب صحتك أيها الزميل ..

— نخب صحتك يافكتور دانجر !..

فأجفل الآخر ، وصاح فى اضطراب : أنا ؟ .. أنا ؟ .. أؤكد لك ....

. ماالذى تريد أن تؤكده ؟ إنك لست الرجل الذى أعنيه ؟ .. إنك لست خادم الكونتس ؟

— خادم من ؟ إن اسمى هو ديفور .. ويمكنك أن تسأل صاحب المطعم !

— نعم .. أناتول ديفور أمام صاحب المطعم .. ولكنك فكتور دانجر بالنسبة للبوليس . . .

— هذا غير صحيح .. هذا كذب وبهتان .. لقد كذبوا عليك . .

فأخرج الرجل من جيبه بطاقة زيارة وقدمها اليه ، وكان بها :

جريموداك

مفتش بوليس سرى سابقاً

مكتب للابحاث الخاصة مع السرية والسرعة

فارتعد دانجر ، وغمغم : أنت من رجال البوليس ! ..

— كلا .. لست منهم الآن . . ولكنى أحب مهنتى ولا زلت أمارســـها فى نطاق أضيق مدى ، وأعظم ربحاً ..

ثم مال إلى الأمام واستطرد وهو يتفرس فى دانجر بعينى صقر :

— فبين الحين والآخر ، يقع المرء على قضية ذهبية .. كقضيتك . .

— قضيتى .. ؟

— نعم .. فهى قضية غير عادية ..أو على الأقل إذا أبديت استعداداً للمعاونة فيها..!

— وإذا لم أفعل . . ؟

— بل ستضطر إلى ذلك .. فانك فى مركز لايسعك معه أن ترفض لى شيئاً . . .

فأحس فكتور داجر بفزع غامض يسرى إلى قلبه ، وغمغم :

— ماذا هنالك ؟ .. ألا تتكلم .. ؟

— حسناً . . لندخل فى الموضوع مباشرة حتى نفرغ منه . . لقد أرسلتنى الآنسة دى سانكليف ..

— سانكليف . . ؟

— وريثة الكونتس دانديلو ..

— وماذا تريد منى . . ؟

— حسناً . . ان الآنسة دى سانكليف قدعهدت إلى باستعادة اللؤلؤة السوداء منك..

— اللؤلؤة السوداء .. ؟

— نعم . . تلك التى سرقتها ..

— ولكنها ليست لدى ، ولا أعرف شيئاً عنها ..

— بلى .. إنها لديك .. — لو كانت لدى لكنت أنا القاتل ..

— إنك أنت القاتل ..! فضحك دانجر ضحكة مغتصبة وقال :

— من حسن الحظ يا سيدى العزيز أن المحكمة كانت لها وجهة نظر أخرى .. وقد قرر المحلفون بالاجماع أننى غير مذنب .. أفهمت ؟ وعندما يكون المرء نقي الضمير، مضافا الى ذلك شهادة اثنى عشر رجلا طيبا صادقا ...

فأمسك البوليس السرى السابق بذراعه وقال فى صرامة :

-- مهلا .. فلست أريد أن أسمع خطبة رنانة يا بنى .. وعليك أنت أن تصغي تماما لما سوف أقوله لك ، وأن تزن كلماتى جيــدا ، فانها تستحق اهتمامك .. فقبل الجريمة بثلاثة شهور ، سرقت مفتاح باب الخدم من الطاهية وصنعت مثيلا له بمحل أوتارد الحداد بشارع أوبر كامف رقم ٢٤٤ .. فاصفر وجه دانجر وهتف بصوت مبحوح :

— هذا غير صحيح .. فلم ير أحد هذا المفتاح .. ولا يوجد مثل هــذا المفتاح ..

-- ها هو ذا .. وبعد لحظة استطرد جريمودان يتابع حديثه :

— وقد قتلت الكونتس بمدية كبيرة مما يثنى نصفها فى القبض كالمطواة..وقد ابتعتها فى اليوم نفسه من « متجر الجمهورية » .. وهى ذات نصل منقوش مثلث الزوايا ..

— هراء .. إنك تلقى الكلام على عواهنه .. فلا توجد هذه المدية قط ..

— هاك هى .. فأجفل فكتور دانجر وارتد الى الوراء ، بينما استطرد جريمودان :

— وهناك بقع من الصدأ القاتم على النصل .. فهل تحب أن أخبرك من أين أتت ؟

— وبعد ؟. إن معك مفتاحا وسكينا .. ولكن من يثبت أنهما يخصاننى ؟.

— الحداد الذى صنع المفتاح ، والبائع الذى اشتريت منه المدية . . . وقد قابلتهما وأنعشت ذاكرتيهما .. وسوف يعرفانك حتما إذا عرضت عليهما ورأياك وجها لوجه .

وكان البوليس السرى السابق يقول ذلك فى صوت حاد كالنصل ، وفى تحديد رهيب .. وقد سرت القشــعريرة فى بدن دانجر ، وتملكه ذعر طاغ لم يحسه من قبل أمام قاضى التحقيق أو فى محكمة الجنايات . . بل إن المدعى العام نفسه لم يواجهه بمثل هذا التحديد وتلك الدقة ، ولم يصف الوقائع كأنما يراها رأى العين كما يصفها هذا الرجل . . . ومع ذلك فقد حاول أن يظهر عدم اكتراثه ، فقال :

— أهذا كل ما لديك من أدلة ! . إنها لا تغير من الأمر شيئا .

— بل هناك دليل آخر بجانبها . . . فقد عدت أدراجك بعد الجريمة ، من نفس الطريق التى اتبعتها عند دخولك .. ولكنك بينما كنت تخترق خزانة الثياب ، تملكك الذعر فجأة ، فاستندت إلى الجدار لتحفظ توازنك .

فهتف دانجر فى صوت متحشرج : كيف عرفت ذلك ؟. إن أحداً لا يستطيع أن يعرفه.

— إن البوليس لا يعرفه . . هذا صحيح . . فما كان يخطر ببال أحد من هؤلاء السادة أو من مكتب النائب العام ، أن يضىء شمعة ويفحص الجدران الداخلية لخزانة الثياب . . ولو أنهم فعلوا ذلك ، لرأوا بقعة حمراء على الجدار الناصع البياض . . . بقعة خفيفة ، ولكنها كافية لاظهار بصمة إبهامك المبللة بالدماء ، عند ما أسندتها إلى الحائط . ولعلك لا تجهل أن فى ذلك الدليل الحاسم على ادانتك ..

وعندئذ امتقع وجه فكتور دانجر حتى غدا كوجوه الأموات ، وانبثقت قطرات العرق من جبينه حتى راحت تتساقط على المائدة ..

وكان يتطلع إلى ذلك الغريب فى جنون .. ذلك الغريب الذى يصور له جريمته كما لو كان قد رآها وشهدها من مكان خفى ..

وأخيراً طأطأ برأسه ، مهزوما ، خائر القوى .. فقد ظل يناضل شهوراً عديدة نضال اليائس المستميت ، كأنما يحارب العالم بأسره .. أما هذا الرجل الغامض ، فانه يجد نفسه أمامه عاجزاً عن مجرد الاعتراض على أقواله .. ويجد نفسه لا حول له ولا قوة .. وأخيرا غمغم يقول : إذا أعدت لك اللؤلؤة السوداء ، فكم تعطينى ؟ . .

— لا شىء ..

— ماذا ؟.. هل تمزح ؟ . . وهل تتوقع منى أن أعطيك كنزاً يقدر بألوف الفرنكات ، بل بمئات الألوف ، دون أن تعطينى شيئا ؟ ..

— بلى .. فاننى أهبك حياتك .. وكفى !..

فارتعد المنكود وانتفض ، بينما استطرد جريمودان فى شىء من الرفق :

— اسمع يادانجر . . إن اللؤلؤة لن تفيدك بشىء . . ولن تستطيع بيعها قط . . فما الفائدة من احتفاظك بها ؟..

— هناك من يشتريها .. وسوف يأتى يوم أجد لها فيه ثمنا طيباً ..

— عندما يأتى هذا اليوم تكون الفرصة قد ضاعت ، وفات الأوان ..

— لماذا ؟..

— لأن البوليس يكون قد وضع يده عليك ثانية ، مزودا هذه المرة بالأدلة الحاسمة التى سوف أقدمها إليه .. المفتاح ، والمدية ، وبصمة إبهامك .. ولن تجد فراراً من المقصلة . . .

فأمسك فكتور برأسه بين راحتيه واستغرق فى التفكير . . وكان يرى نفسه مقضيا عليه لا محالة .. كما أحس بشعور عظيم من التعب يحل به ، وبحاجة قصوى إلى الراحة والسكينة .. وأخيراً غمغم دون أن يرفع رأسه : متى تريدها ؟..

— قبل الساعة الواحدة الليلة . — وإذا لم تحصل عليها ؟ .

— إذا لم أحصل عليها فسأبعث إلى النائب العام بهذا الخطاب الذى تتهمك فيه الآنسة دى سنكليف

وعندئذ صب دانجر لنفسه كأسين متتاليين من النبيذ ، جرعهما دفعة واحدة ، ثم نهض قائلا :

— ادفع الحساب .. وهيا بنا نذهب .. فكفى ما لقيته فى هذه المسألة اللعينة ! .



وكان الليل قد أرخى سدوله ، بينما أخذ الرجلان يسيران فى شارع لوبك ، حتى بلغا ميدان الأيتوال .. وكانا يسيران فى صمت ، على حين كان فيكتور دانجر يجر قدميه المتثاقلتين ، وقد انحنى ظهره كأنما ينوء بعبء ثقيل .

وإذ وصلا إلى حديقة مونسو ، غمغم قائلا : إن المكان قريب من المنزل .

— طبعا .. فانك لم تغادره ، قبل القبض عليك ، إلا للذهاب إلى حانوت السجاير فقط .

فعاد دانجر يقول فى صوت أجوف : ها نحن قد وصلنا .

وظلا يسيران بجوار سياج الحديقة حتى اجتازا الطريق الذى يقع حانوت السجاير على ناصيته ، فتوقف دانجر على قيد خطوات منه ، وما لبث أن ترنح وخذلته ساقاه فسقط على أحد مقاعد الحديقة منهوك القوى .

فقال رفيقه : حسنا ؟ . . — إنها هناك .

— هناك ؟.. أين ؟ .. ما هذا الذى تقوله ؟ .. نعم .. هناك .. أمامنا مباشرة ...

— أمامنا مباشرة ؟... أصغ إلى يادانجر .. خير لك ألا ...

— قلت لك إنها هناك أمامنا .. — ولكن أين ؟

— بين قطعتين من حجارة الرصيف

— أى قطعتين ؟ — انظر وابحث بنفسك ...

— قلت لك أى قطعتين ؟ إن الرصيف طويل كما ترى . . فلم يجب فكتور ...

— آه ! إنك تحاول أن تخدعنى وتغرر بى .. أليس كذلك ؟

— كلا .. ولكن .. ولكنى سوف أموت جوعا .. ولكنى سوف أموت جوعا ..

— ولهذا تتردد ؟ حسنا .. إننى سوف أكون كريما معك .. فكم تريد ؟

— مايكفى لنفقات سفرى إلى أمريكا . . . — اتفقنا ...

— ومائة فرنك لمصاريفى .. — سوف أعطيك مائتين .. فتكلم الآن .

— إذا عددت حجارة الرصيف من عند القناة ، فسوف تجدها بين القطعتين : الثانية عشرة والثالثة عشرة .. بين الأوحال ؟ — نعم .. تحت الافريز مباشرة ...

فتلفت جريمودان حواليه . . كانت عربات الترام لاتنقطع . . والمارة يروحون ويغدون أمامهما .. ولكن .. ماذا يهم ؟ إن أحداً لن يشك البتة فى شىء

وفتح مبراته ، ثم جلس القرفصاء وراح يدس نصل المبراة فى المكان الذى عينه فكتور ، وهو يقول : وإذا لم تكن هناك ؟ .

— إذا لم يكن أحد قد رآنى أنحنى وأضعها فى هذا المكان ، فسوف تجدها بلا ريب..

ترى هل هى هناك حقا ؟ . اللؤلؤة السوداء ملقاة بين الأوحال ، فى متناول يد أى عابر سبيل يلتقطها ؟ . اللؤلؤة السوداء !. تلك الثروة الطائلة ! .

وعاد يقول : كم بوصة دفعتها ؟. — ثلاث بوصات ..

فحفر جريمودان ثغرة فى الأرض الرطبة الموحلة ، وعندئذ ارتطم نصل المبراة بجسم صلب.. وبعد لحظة كان جريمودان يخرج اللؤلؤة السوداء بين أصبعيه .. وما لبث أن قال:

— خذ .. هاك المائتى فرنك .. وسوف أرسل لك تذكرة الباخرة إلى أمريكا .

✽ ✽ ✽

ختم أرسين لوبين حديثه بعد أن روى لى القصة ، وكشف لى عن الجانب المجهول منها ، بقوله : وهكذا ترى يا صديق أن للجريمة عقابها وللفضيلة ثوابها ! .

— أجل .. لقد رأيت كيف اختارتك العناية الألهية ، ممثلا فى شخص جريموذان ، ذلك البوليس السرى المتقاعد ، لتحرم المجرم ثمرة جريمته !.

— تماما .. وإنى أعترف لك بأنها واحدة من المغامرات التى أفخر بها كل الفخر ، وأعتز بها أيما اعتزاز .. وإن الدقائق الأربعين التى قضيتها فى مسكن الكونتس ، بعد أن اكتشفت موتها ، إنما تعد من اللحظات الخالدة التى لا تنسى فى حياتى كلها .. فقد كنت إزاء حالة معقدة تبدو مستحيلة الحل أمام ناظرى ، ولكنى فى هذه الدقائق الأربعين استطعت أن أعيد تصوير الجريمة فى ذهنى ، وتحققت ، بفضل بعض الأشياء الدقيقة ، من أن القاتل لا يمكن إلا أن يكون أحد خدم الكونتس .. وأخيرا وجدت أنه كى أستطيع الحصول على اللؤلؤة ينبغى أن يقبض على الرجل . ولهذا تركت زر السترة تحت فراش القتيل ـ ولكن على أن تكون الأدلة ضده غير قوية ولا حاسمة .. ولهذا أخذت المدية التى كان قد تركها على البساط ، والمفتاح الذى نسيه فى الباب ، ثم أوصدت الباب بنفسى بعد أن محوت آثار أصابعه من جدار خزانة الثياب .. وفى ظنى أن هذه كانت إحدى ومضات ...

— ومضات العبقرية والذكاء الحاد !

— العبقرية والذكاء إذا شئت ..؟ فما كان أحد ليفكر كما فكرت .. أما أنا فقد أصبت فى لحظة واحدة طرفى المشكلة .. القبض على القاتل ثم إطلاق سراحه .. وبذلك استطعت الافادة من سطوة القانون فى إرهاق الرجل وإذلاله وتركه فى حالة عقلية ونفسية سيئة بحيث يكون عند إطلاق سراحه مهيأ للوقوع فى الشرك الساذج الذى أنصبه له ..

— إنه شرك ساذج حقا .. فما كان الرجل ليخشى شيئا ..

— طبعاً .. فلا خطر عليه البتة .. لأن المرء لا يمكن محاكمته مرتين عن جريمة واحدة ..

— يا للمسكين ! !

— أتراه مسكينا ؟ فيكتور دانجر ؟ إنك تنسى أنه قاتل .. ! وإن ترك اللؤلؤة السوداء فى حوزته بعد ذلك مما يتنافى مع الآداب العامة والخلق القويم .. كفى أنه ظل على قيد الحياة ..

— وأن اللؤلؤة السوداء قد انتقلت اليك !

فأخرجها من جيب سرى بحافظة أوراقه وراح يمسح عليها بأنامله فى رفق، ويرمقها فى إعجاب ، وهو يغمغم :

— ترى أى أمير روسى أو أى مهراجا هندى سيصبح مالـكا لهذه الدرة النفيسة..!

بل أى مليونير أمريكى قدر له أن يمتلك تلك الآية من آيات الفن والبذخ التى كانت يوماً من الأيام تحلى عنق ليونتين زالتى ، كونتس دانديلو ؟ .. من يدرى ؟ .. انى ما زلت أنتظر ...

نسيت أن أذكر أن صحيفة « صوت فرنسا » نشرت منذ يومين هذه الفقرة :

« آلت أمس اللؤلؤة السوداء الشهيرة إلى أرسين لوبين ، الذى استعادها من قاتل الـكونتس دانديلو . . وسوف تعرض نمـاذج صناعية منها فى القريب العاجل بلندن وموسكو وكالكتا وبوينس ايرس ونيويورك ..

ويسر أرسين لوبين أن يبدى استعداده لتلقى الطلبات بشأنها من عملائه فى فرنسا أو الخارج ... !

(تمت)

رواية العدد القادم :

المـــوت السريع

للـكاتب الـكبير :

كورتلاند فتز سيمونز

تعريب الأستـاذ :

أحمـد محمود ذهنى

العدد ٦٨٦

الاحد ١٩ ديسمبر سنة ١

الامتياز باسم : م عبد العزيز

رئيس التحرير : عمر عبد العزيز امين

« مطابع دار الجيب بالقاهرة »